إلى حياة آمنة!

رحلة مرض زوجي شفيق

أ. د. تغريد القدسي-غبرا

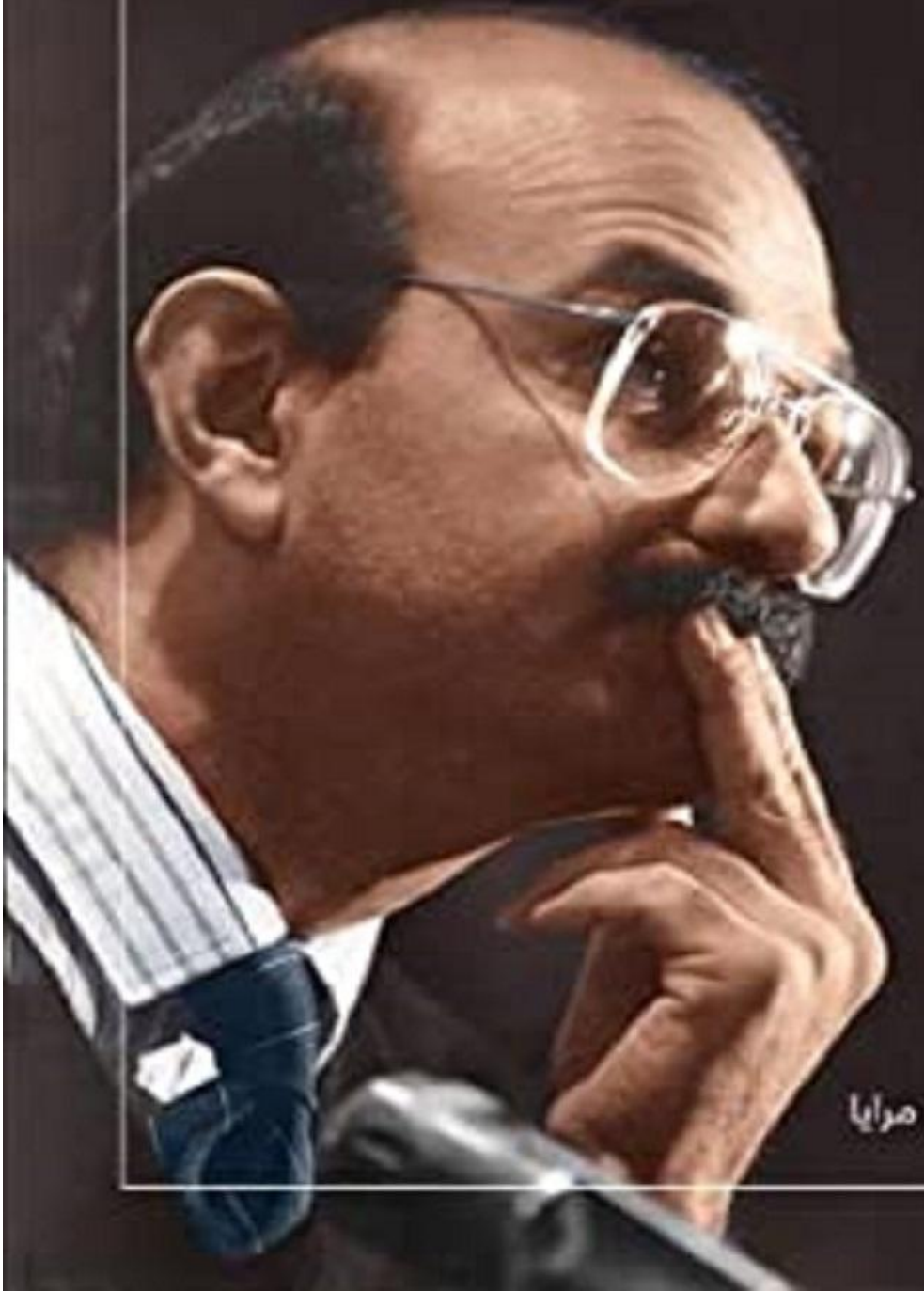

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

إلى حياة آمنة!

رحلة مرض زوجي شفيق

أ. د. تغريد القدسي-غبرا

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

الكاتب: أ. د. تغريد القدسي-غبرا
عنوان الكتاب: إلى حياة آمنة! رحلة مرض زوجي شفيق
X
تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقامي
X
ر.د.م.ك: 978-9921-775-42-6
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022
2000 نسخة
X
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
X

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
takweenkw takween.publishing@gmail.
com
takweenPH takween_publishing
www.takweenkw.com

إلى حياة آمنة!

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

الزُّمَر: ١٠.

إهداء

هذا الكتاب إهداء إلى روح زوجي الأستاذ الدكتور شفيق ناظم الغبرا، الذي توفي مساء يوم السبت الموافق الرابع من سبتمبر ٢٠٢١، بعد صراع مع سرطان الجهاز الهضمي. لروحه السلام والراحة، وليَ ولأولادنا: حنين، زينة، ويزن، من بعده الصبر والقَبول.

أ. د. تغريد محمد القدسي

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

النحل: ٩٦.

تمهيد

دوَّنتُ أغلب هذه المقتطفات كرؤوس أقلام عندما كنت أعيش في خضِّم مرض زوجي. لم يسمح لي الوقت ولا المزاج ولا الطاقة بأكثر من هذا التدوين، ولكن بالعودة إلى المقتطفات والرسائل الموجودة على جهازي النقال، وبخاصة بيني وبين صديقتي د. أروى الشاعر، التي رافقتني في هذه الرحلة المؤلمة، بدأت أستعيد بعض التفاصيل الموجعة والمضنية والمضحكة والسَّارة. كل هذه التفاصيل عشناها زوجي شفيق وأنا وأبنائي على مدى فترة بقائنا في الولايات المتحدة التي بلغت ستة عشر شهرًا، امتدت من ٧ فبراير ٢٠٢٠ حتى ٩ يونيو ٢٠٢١، ثم في الكويت، حيث لفظ شفيق أنفاسه مساء الرابع من سبتمبر ٢٠٢١.

رغم حبي وتقديري للخصوصية فإنني وددت أن أكتب هذه التجربة، علَّ الآخرين يتمعنوا فيها، وخاصة أنها تخص شخصية عامة امتلكها العالم أجمع إلى جانبنا. وهكذا كانت هذه المقتطفات أو اليوميات رسائل إلكترونية ومدونات على هاتفي النقال أثناء وجودي في الولايات المتحدة فترةَ علاج زوجي من سرطان المعدة اللئيم، عندما كانت تسنح لي الفرصة ويمكِّنني إرهاقي الدائم من الكتابة. حرمني ذلك المرض اللعين، السرطان، الذي قتل زوجي، من بلدي وأبنائي وأصدقائي ومحيطي أغلب العام والنصف، أي فترة غيابنا خارج الكويت، ولكنه قرَّبني من زوجي رغم صعوبة التفاصيل اليومية. زوَّدني الإله بقدرة عالية على الصبر والتحمل لم أعرف أني أمتلكها. الصبر والمثابرة والبحث الدائم والمستمر، القراءة والتحدث مع الأطباء، كل ذلك كان يرافقني دومًا في هذه الفترة التي لا تخبو في مخيلتي.

سيجد القارئ أن هذه اليوميات كتبتها أبوابًا بدلًا من فصول. فضلت أن أضع هذا السرد في أبواب لأن هذه التجربة كانت كالأبواب تتفتح لنا شيئًا فشيئًا. كنا نمشي كالعُميان لا نرى ولكن نتحسس الطريق ونتعلم في أثنائه معًا أغلب الوقت. في الكثير من الأحيان تراني أكتب عن تجربة شفيق بصيغة الجمع. لا أزال أفعل ذلك، فهذه التجربة أبقتنا في نفس

المركب معًا، لم نتفرق ألبتة وكنا نعيش في مساحة صغيرة، نسينا كيف يمكن أن نتعايش فيها نحن وأبناؤنا وخاصة يزن وزينة اللذين تواجدا وتشاركا معنا هذه التجربة. أما حنين فبدورها كانت معنا ومع والدها عبر التلفون، يوميًّا، من الكويت.

منذ تم تشخيص زوجي الدكتور شفيق ناظم الغبرا، بسرطان الجهاز الهضمي، انقلبت حياتنا رأسًا على عقب، فقبل أكثر من سنتين كانت حياتنا غير ما هي عليه الآن. حدث هذا التغير وخاصة بموت شفيق، رحمة الله عليه. كان موته سريعًا وعاجلًا «Too fast too soon» فجأة اهتزَّ وسقط العمود الرئيسي لخيمتنا، ففقدنا التوازن ولا نزالُ، كلٌّ على طريقته. أنا ما عدت زوجة فلانٍ رغم أني عرفت هذا الدور لسنين طويلة. عليَّ الآن أن أُعدَّ نفسي لدور جديد وآخر يكون امتدادًا للدور الذي عشته لأربع وأربعين عامًا. لكن ما السبيل؟ أحسست أن أجزائي كلها جفَّت بموت زوجي الذي عشت معه كل هذه السنين!

لا شك في كل هذا أن الأطباء في الكويت قبل مغادرتنا للولايات المتحدة وبعد عودتنا إلى الكويت كانوا غاية في التعاون وامتلاك حِس المبادرة. ثم إن أعضاء السفارة الكويتية ممثلة في سفيرنا في الولايات المتحدة الشيخ سالم عبد الله الجابر الصباح، والمكتب الصحي في واشنطن، مديره د. فيصل الصفي، وجميع أعضاء المكتب، كانوا جميعًا غاية في التعاون مع شفيق ومعنا، ما جعل كل الإجراءات أسهل في هذه الرحلة المضنية.

اخترت أن أطلب من صديقتين اثنتين أن يقرأا هذه المروية ويزوداني بملاحظاتهن قبل النشر. الأولى صديقتي المقربة جدًّا لي ولشفيق د. أروى الشاعر. رافقتني أروى في هذه الرحلة المضنية بشكل شبه يومي، طلبت منها أن تكتب مقدمة هذا السرد لخبرتها الطبية، العلمية والأدبية وعلمها الشخصي الوثيق بكلينا، أنا وشفيق. الثانية هي السيدة الفاضلة، القارئة النهمة رِهام النقيب التي عملت مع زوجي لمدة ثلاثين عامًا كمساعدة علمية فعرفته خير معرفة. كلتاهما أضافتا إلى هذا السرد جانبًا فريدًا، ولكلتيهما الشكر والعرفان.

الكويت في ١١ من فبراير ٢٠٢٢

أ. د. تغريد محمد القدسي

مقدمة

محنة مُرَّة يصعب عدم التأثر بها وذرف بعض الدموع. هواجس وكتابة مدعومة بمجهود شرحي ونفسي واضح، تحمل الكثير من معاناة الصديقة الوفية الدكتورة تغريد هي وعائلتها على امتداد سنة وسبعة أشهر منذ لحظة يوم العاصفة الذي تم فيه تشخيص شفيق بمرض السرطان إلى يوم رحيله القاسي. كانت تغريد بدون كلل أو ملل تسرع بخطواتها إليه لتلبي كل ما يحتاجه وكلها أمل ونظرة متفائلة بأن زوجها الحبيب سينتصر على المرض، لأنه كان فدائيًا قبل أن يصبح أكاديميًا وأنه لن يرحل، بل سيعيش ويقضون بقية العمر معًا. ولكن جرت الرياح بما لا تشتهي السفن، كانت الغلبة للمرض اللعين وترجَّل البطل شفيق من صهوة الحياة الفانية ماضيًا الى الحياة الأبدية.

قصة تغريد وشفيق هي قصة حب ووفاء، فكر ونضال عاشاها الاثنين بواجهاتها المختلفة قبل أن يغلق موت شفيق هذه البوابة بألوانها الجميلة التي ستبقى محفورة بعمق في ذاكرة تغريد تحملها بصوت خافت في قلبها وصرخة ألم وحزن في داخل روحها الشفافة الرقيقة...

عرفت تغريد وشفيق أكثر من ثلاثين عامًا عندما التقينا في بيت إسماعيل شموط، وتمام الأكحل (كبار الفنانين التشكيليين الفلسطينيين)، أصبحت أشعر خلالها بأنني جزء لا يتجزأ من تلك العائلة الرائعة، جمعتنا قصص وأسرار متبادلة، كنت أتابع معهم مراحل تطور حنين وزينة، ثم يزن منذ يوم ولادته الأول. حياة تغريد كانت كلها صراع بين عملها الأكاديمي كمدرِّسة وبروفِسورة في جامعة الكويت وبين اهتمامها وعطائها الكبير فوق كل الوصف لزوجها وأبنائها والخوف الدائم عليهم، ما كنت أسميه بضحك Family obsession.

الحديث يطول عن تغريد وشفيق ولربما يحتاج الى صفحات عديدة لذلك سأختصر ما كان يردده دومًا شفيق في أشهره وأيامه الأخيرة، تاركة التفاصيل لتغريد.

كان يقول: «أعرف أن كل زوجة تهتم بزوجها عندما يمرض ولكن اهتمام تغريد بي وسهرها وعدم تركها لي ولو للحظة وصبرها الجبار طوال فترة مرضي لا يستطيع تحمله حتى الجبل، كم هي رائعة». وعندما كنت أمازحة سائلة: «هل تحبها إلى هذا الحد، أين كان كل ذلك مخبأً!؟» بابتسامة يقول: «أنا لا أحبها فقط بل أموت بتغريد الأصيلة بنت الأصول، جميلة هي يا أروى». وكم من مرات ومرات ردد ذلك على مسامعي: «أصيلة بنت أصول»، مضيفًا: «يا تغريد رايح وأنا مرتاح لأن بجانبك خير الجيران أروى وسمير». ولم يكف عن أن يوصيني بالاعتناء والبقاء إلى جانب زوجته الحبيبة تغريد، وقبل رحيله بثلاثة أيام كنا نقف حول سريره أنا وأختاه سحر ولبنى، وأخوه يوسف، وطبعًا تغريد، كان يبدو عليه الإرهاق الشديد وعدم قدرته على التكلم بشكل واضح أو مفهوم ولكن فجأة وكأنها كانت صحوة ما قبل الموت اشتدت قوته وبدأ يحدثنا عن تغريد وكرم عائلتها الرائعة ووقوفها الجبار بجانبه وبأنه ظلمها بانشغاله الدائم عنها نتيجة عمله وسفره، ولكن بصبرها استطاعت الحفاظ على العائلة طوال هذه السنين. كانت تغريد هي وصيته الأخيرة لإخوته وهو على فراش الموت قبل مغادرته هذا العالم.

رحل رجل الكاريزما والتواضع، رحل سيد الحق والموقف والفكر الحر، سيد النزاهة والحنكة والحكمة، تاركًا إرثًا سياسيًّا وتاريخًا بطوليًّا خالدًا تتوارثه الأجيال. غصن توارى ولكن جذعه ثابت، وجذره ممتد ليعانق تغريد امرأة المهام الصعبة بتميز، والتي ناضلت ووقفت جنبًا إلى جنب مع رفيق حياتها منذ أن كان فدائيًّا، فأكاديميًّا سياسيًّا ثم مريضًا، تشاركه محنة آلامه، محاولة بجهد وصبر مقاومة ذلك المرض اللعين معه، ولكنه مضى تاركًا لها أطواقًا من اللوعة والشجن، ومطرًا من الدموع والشوق.

وداعًا شفيق، سنبقى أنا وزوجي سمير، أوفياء لما أوصيتنا به ويرضيك، سلامًا ورحمة إلى روحك الطاهرة وكل الطيب لمضجعك.

أنهي كلامي بأنكِ يا صديقتي الغالية تغريد قصيدة جميلة من الوفاء والحب والعطاء، وهذا الكتاب يحدثنا عن كل ذلك.

الكويت في ١١ من فبراير ٢٠٢٢

د. أروى محمد الشاعر

الباب الأول: الصاعقة

ظهيرة يوم الأربعاء، الخامس عشر من يناير ٢٠٢٠، قالت صديقتي الطبيبة د. أروى الشاعر لزوجي شفيق:

«ستذهب لعمل منظار الليلة».

شفيق: «غدًا».

«لا الليلة، أعني الليلة».

قالتها صديقتي د. أروى الشاعر بحزم لشفيق الذي كان يمسك بفنجان قهوته المعتاد والمشهور به وهو لا يزال يحاول التملص من الموعد. كانت ابنتي الكبيرة حنين قد اشتكت لأروى أن والدها يعاني صعوبة في البلع إلا أنه يتجاهل ذلك. لم ولن يخطر ببال أيٍّ منا أننا نتحدث عن شيء خطر أو مميت. حتى أن شفيق بداية ودَّ الذهاب وحده دون أن يدعني أقوده بسيارتي إلى المستشفى. في المستشفى القريب من البيت سأله الطبيب ج. ع. عدة أسئلة ولكن يحضرني، بقوة، اثنين منها:

الطبيب: «متى كانت آخر مرة أجريت بها منظار؟».

شفيق: «صيف ٢٠١٨».

الطبيب: «مِن أعلى أم أسفل؟».

عندما جاء رد شفيق أن المنظار كان من أسفل نظر إليه الطبيب وقال معلقًا: «ليتك عملته من فوق كذلك».

الطبيب: «هل تعاني من فقدان الوزن؟».

شفيق: «لا أبدًا».

تدخلت أنا هنا قائلة: «كيف لا، نحن نتبع نفس طريقة الأكل، أنت تخسر الوزن وأنا لا أخسر، أنت بالطبع فقدت من وزنك الكثير مؤخرًا».

تذكرت أنني وأثناء وجود ابني يزن بالكويت لعطلة الشتاء وعندما كان يجلس مع والده صباحا أنني لاحظت نزول وزن شفيق وأخبرت ابني بذلك.

دخل الطبيب مع شفيق لإجراء المنظار وجلست أنتظر معتقدة أنه قد يكون أي شيء ولكن ليس مميتًا. عندما فرغ الطبيب وحضر، أفزعني وجهه الذي كان يحكي الكثير وكأنه كتب عليه كل شيء.

سألته باستجداء: «ليس جيدًا؟».

أجاب: «لا ليس جيدًا ألبتة».

بدأ جهازي النقال يضيء باسم أروى وأنا أمسك به باليد اليسرى. نظر إليَّ الطبيب قائلًا: «أعطني أكلمها، عفية عليها أرسلتكم». (عامِّية كويتية). تناول جهازي النقال ومشى مبتعدًا يكلمها ويشرح لها الحال غير منتبه إلى أني كنت أتبعه كظله.

فرغ الطبيب من الحديث مع صديقتي د. أروى وقال لي: «نريد أشعة مقطعية بأسرع وقت CT Scan». اقتراحه كان ألَّا أخبر شفيق أو أحدًا من الأولاد ريثما نتأكد من كل شيء.
نزلت إلى الطابق الثاني، عندما كان شفيق يصحو من المخدر، وأخذت له موعدًا في التاسعة من الصباح التالي. بعد هذين الفحصين، تم تشخيص شفيق بمرض سرطان الجهاز الهضمي وبالتحديد سرطان المعدة Gastric adenocarcinoma ومن هذه اللحظة غدا كل شيء مؤلمًا، موجعًا وسريعًا.

ابتدأت ابنتي زينة بانتقاء المأكولات والفاكهة وخاصة القشطة، التي يحبها والدها شفيق وجلبها من بائع متجول قرب البيت. ابتدأت أنا أرتاد المتجر المحاذي لبيتنا كل يومين، وقبل الذهاب إلى عملي، أنتقي أفضل الخضر والفواكه لأعصرها طازجة وأعطي شفيق زوادته اليومية أثناء مواعيده التي لم تخف أو تقل أو تتغير.

تعاون الجميع معنا في إدارة العلاج بالخارج بالكويت للتوجه إلى خارج الكويت لإجراء عملية استئصال للمعدة، وخلال ثلاثة أسابيع ترددنا على عدة مكاتب ومستشفيات: شفيق، أروى، ابنتي حنين وأنا. كان آخرها مكتب الخطوط الجوية الكويتية الذي أنهيت وحدي معهم كل الإجراءات بما فيها تذاكر الطيران بينما شفيق ينتهي من تصوير حلقات «أبجديات القضية الفلسطينية» ويخلص ارتباطات أخرى له. لم يَقِل نشاطه، لقاءاته أو ظهوره الإعلامي. لم يُعر المرض أية أهمية. أنهينا كل التفاصيل الخاصة بالسفر. كلانا أخذ، أنا وشفيق، إجازة من التدريس والجامعة وتوجهنا إلى الولايات المتحدة، وإلى واشنطن العاصمة الأمريكية وإلى مستشفى جامعة جورج تاون Georgetown University Hospital حيث ينهي ابني يزن دراسة الماجستير في إدارة الأعمال MBA.

كنا جميعًا نأمل في استئصال المعدة لشفيق، الذي كان يخطط بعدها للمضي بما كُتب له من حياة. كان إيماننا كبيرًا بأثر الأكل اليومي على هذا السرطان، ولقد كان من أوائل الكتب التي قرأتها Cancer is a metabolic disease هكذا كنا أنا وابنتي زينة ننتقي الخضر والفواكه المضادة للأكسدة من أجل كبح جماح هذا الوحش الجاثم داخل معدة زوجي.

استمر ذلك معنا طوال فترة مرض شفيق. كان سطح طاولة الأكل المحاذي للمطبخ بشقتنا بواشنطن، حيث تلقَّى زوجي علاجه، ممتلئًا بعلبٍ لكل شيء قرأت عنه: بذور المشمش، بودرة أنواع عديدة من الفطر، زيت الحبة السوداء، حبوب عديدة أخرى وأعشاب، بعضها سمعت به والآخر لم أسمع به، ومع كلٍّ منها طريقة الاستعمال والوقت الذي يجب إعطاؤها له، كنت أقرأ وأطلب. وددت جلب أي شيء وكل شيء علَّه يستفيد منه ولو قليلًا. كنت

أمنّي نفسي بآثارها التراكمية، ولطالما وفي لحظات مؤلمة وددت إدخال يدي في حلقه وسحب هذا المارد الجاثم داخله لو استطعت.

تشخيص شفيق بالسرطان جعلنا كعائلة ننظر إلى الماضي ونحاول تذكر واسترجاع أي شيء أهمله وقاد إلى هذه المرحلة. أذكر أن شفيق قبل التشخيص بستة أشهر تقريبًا فقد توازنه وأصيب بالدوار أثناء إحدى محاضراته حتى أن طلبته طلبوا منه الجلوس باقي المحاضرة. فعل ذلك لأول مرة في حياته التدريسية فهو معتاد على الوقوف طوال المحاضرة. لم نقلق لا أنا ولا هو فالأغلب أنه يحتاج إلى فحص دم. كان شفيق بشكل عام مثابرًا على فحوصاته ومؤمنا في الأفضل دائمًا. كيف نقلق ولماذا؟ شفيق يداوم على عمل الفحوصات الشاملة باستمرار، ما هذا الحظ العاثر الذي يجعله يصاب بسرطان المعدة وهو العضو الوحيد الذي لم يكن يفحصه ألبتة. يا لسخرية القدر!

أذكر أنني اشتكيت لأروى في ديسمبر من العام ٢٠٢٠ أن شفيق يسعل بشدة وأن هذه السعلة طالت. كنت أسمعها تدوي في أرجاء البيت. طلبت منه الذهاب إلى عيادة أروى عدة مرات إلا أنه كان يماطل ويؤجل ويسافر. عند شفيق وباستمرار ما هو أهم وأكثر إلحاحًا وعلاجه السريع أن يأخذ قرصًا للسعلة Cough Drop وينطلق. في نفس الشهر وأثناء عشاء عائلي تواجدت به أختي وإحدى صديقاتي المقربات وكلتاهما لم تكونا قد رأتا شفيق لعدة أشهر. كلتاهما أخبرتاني متسائلتين، فيما بعد، أن شفيق لا يبدو كعادته ولا يبدو بحال جيدة. ثم إن مساعدة شفيق في الجامعة، صديقته وصديقتي، أخبرتني أنها كانت أثناء إحدى المحاضرات تنظر إليه وراعها تقاسيم وجهه الذي بدا مختلفًا ومنهكًا. كل هذه القصص كانت تؤرقني وتقض مضجعي كلما تذكرتها. هل كانت علامات فارقة ولكننا لم ننتبه لها؟ هل كانت مؤشرات وتم إغفالها؟ أو إهمالها؟

الباب الثاني: الولايات المتحدة الأمريكية

حياة التأمل، العمل الجاد ومرافقة المريض الخاضع للعلاج بدأت منذ لحظة التشخيص بالكويت ولكن ومع ذلك فإن شفيق، هذا المريض، كان مؤملًا في الحياة وفي نفس الوقت منتظرًا حكم الله عليه. ما أصعب هذا الشعور إذا ما اكتنف الشخص، خاصة أن حكم الإعدام هنا جاثم. منذ لحظة تشخيص شفيق بمرض سرطان المعدة يوم الأربعاء الموافق ١٥ يناير ٢٠٢٠ وحتى يوم توجهنا إلى الولايات المتحدة، الجمعة الموافق ٧ فبراير ٢٠٢٠، تغيرت حياتنا. بدأت رحلة العناء، الشقاء والبحث عن الذات لشفيق وليَ واستمرت إلى اليوم الذي تركنا فيه الولايات المتحدة وتوجهنا عائدين إلى الكويت يوم الاثنين الموافق ٧ يونيو ٢٠٢١.

حطت الطائرة في نيويورك. جاء ابني «يزن» إلى نيويورك ليقودنا حتى لا نركب الطائرة داخليًا من نيويورك إلى واشنطن. تجربتنا مع الحجز الداخلي، تاريخيًا، مضنية ومتعبة ومن الأسهل القيادة بدلًا من الطيران وخاصة بين المدن التي تكون على بعد ساعات بعضها من بعض. البرد كان قارسًا، ركبنا السيارة مرهقين جدًّا مع يزن وانطلقنا بقيادة هذا السائق اليافع.

حجزنا فندقًا قريبًا من ابننا يزن لفترة أسبوعين حتى تتضح أمورنا. وصلنا الفندق فجر السبت صباحًا. شفيق مغرم بإفطار الفنادق. عادة ما يبدأ بالشوفان وعصير البرتقال الذي يحبه. أنا أحب البدء بالفواكه والقهوة ثم أحضر أنا أو هو البيض أو العجة (الأومليت) ونختم أكلنا بالمشاركة بفطيرة البانكيك الأمريكي أو الوافل. كنت أطلب القرفة (الدارسين) والقليل من العسل أضعها له على الشوفان وعلى الوافل بدلًا من الصلصة الغنية بالسكر، هكذا اعتدنا. نحن عائلة مشهورة بأنها صحية لذا ترانا كلنا مدهوشين ومصدومين مما حدث مع شفيق.

طوال هذه الفترة كان زوجي يعد نفسه لعملية استئصال المعدة فكان يكثر من التمارين الرياضية آخر الليل والمشي لمسافات، وباعتقادي أنه كان يفرغ شحنة طاقة هائلة حملها معه جراء المفاجأة بما حدث معه ولكنه لم يَبُح بمكنونه، أفعاله كانت تفضحه.

في أول لقاء مع طبيب العلاج الكيماوي بعد الجراح الذي كان من المفترض أن يجري لشفيق العملية، أخبرنا، أخبر شفيق ومنذ البداية: «أمامك عامان على الأكثر وإن كانت الصورة مزهرة ثلاثة أعوام You have a maximum of two years and if it's a rosy picture, three».

في ذلك اليوم من شهر فبراير وبعد أن رأينا الطبيب ومن هول الصدمة، قطعنا Key bridge الجسر الفاصل بين فرجينيا وواشنطن بصمت مطبق وتوجهنا إلى شقة ابننا يزن مشيًا على الأقدام. لم يتحدث أيٌّ منا ولم ننطق ألبتة طوال الطريق. وفي شقة يزن ارتميت على المقعد وغفوت لأصحو وإذا بشفيق يغفو بعمق. لم يود أيٌّ منا التعليق أو الحديث وكنا نحاول استيعاب الصدمة. كانت أعيننا تهرب بعضها من بعض فلا نتحدث عن الموضوع الذي قلب حياتنا وغيرها. بدأت رحلة العلاج، بدأت رحلة الكد والجد، رحلة العذاب والوجع لكلينا، هو كمريض وأنا كمرافق لهذا المريض.

يخبرني ابني يزن بعد وقت أنه كان يخترع القصص ويقلب تلفونه الجوال متظاهرًا بأن القصص التي كان يقرؤها لوالده، هي لأناس موجودين عاشوا سنين طويلة مع أنهم شُخِّصوا بسرطان المعدة. كان واضحًا منذ البداية هول الحدث وأثره القوي ليس على كلينا فقط وإنما على عائلتنا برمتها.

كان تشخيص أطباء مستشفى جورج تاون من البداية أن هذا السرطان بين المرحلة الثالثة والرابعة، وفي هذه المرحلة من المرض لا يمكن استئصال المعدة. هذا التشخيص كان غير تشخيص أطباء الكويت الذين اعتقدوا أن سرطان شفيق كان في المرحلة الثانية، لذا كان تشخيص الكويت والعلاج يركزان على إجراء عملية استئصال المعدة كليًّا والتخلص منها. فيما بعد سنعلم ونتعلم أن عملية تحديد مرحلة السرطان Staging cancer هي التحدي

الأكبر، ولذا فإن الفحوصات التفصيلية التي تم إجراؤها في واشنطن ولم نمتلك الوقت الكافي لها في الكويت كانت تزيد من قناعة الأطباء أن سرطان شفيق تجاوز المرحلة الثانية، ما يعني أنه انتقل إلى خارج المعدة، العضو الرئيسي، وسيكون من الصعب إجراء عملية استئصال معدة لشفيق. هل كان في المرحلة الثانية وعملية الانتظار من أجل حسم موضوع المرحلة زادت من انتشار المرض؟ أطباء مستشفى جورج تاون كانوا يعتقدون أن المرض في مرحلة ما بعد الثانية، خاصة أن الصورة المقطعية الأولى CT Scan أظهرت نقطتين أسفل الظهر وخلف شريان الأَوْرطَى وعندما أخذوا الخِزع (القطع) اللازمة منهما، كانت واحدة منهما مسرطنة Cancerous. يعني ذلك أن السرطان انتشر خارج المعدة إلى أماكن أخرى وفي انتظار الناقل الملائم لينتقل إلى نقطة أخرى. السرطان الآن في انتظار الوسيلة التي ستقله إلى مكان آخر خارج العضو الرئيسي الأساسي (المعدة). اعتقد طبيبه أن خيار عملية استئصال المعدة قد ضعف ولكنه لم يكن مستحيلًا بعد.

خضع شفيق كذلك لإجراء جراحي لفحص التصوير المقطعي Position Emission Tomography PET Scan. يومها أخبرني طبيبه قبل أن يصحو شفيق من المخدر أنه تفاجأ بأن المعدة أنظف مما توقع وهذا ما رفع من معنوياتنا ولكننا كنا في انتظار نتيجة الـ CT Scan.

اتصلت في اليوم التالي بصديقتي د. أروى وأخبرتها بملخص ما قاله الأطباء. ذرفتُ الدموع وبكيتُ وانتحبتُ وأنا أخبرها بالتفاصيل، فما كان منها إلا أن هدأت من روعي وأخبرتني أن الأعمار بيد الله وحده. فيما بعد تخبرني أروى أن ذلك كان محاولة من جانبها لتهدئتي فقط وأن خبرتها الطبية كانت تؤكد ما قاله الطبيب. أعطيت صديقتي أروى معلومات منصة المرض الخاصة بشفيق لتتمكن من متابعة فحوصاته معي.

كان رأي ابننا يزن ومن البداية أن نستأجر شقة حيث يقطن هو فذلك أسهل له ولنا. لم أمانع ولكني قلت له: «أي خيار يكون جيدًا لي طالما عندي أحد للتنظيف اليومي». سأتعلم درسي القاسي حيث المعاناة الحقيقية في أجواء الخوف من جائحة الكورونا، ناهيك عن

رعاية زوجي مريض السرطان الذي ضعفت مناعته نتيجة العلاج الكيماوي. بقاؤنا لشهرين تحول إلى ما يقرب العام والنصف. هل نحن مخيرون أم مسيرون؟ السؤال الأبدي الذي يقض مضجع كل واحد منا. هذا السؤال الذي لا أزال أسأله لنفسي والذي قد يتضح أكثر مع هذا السرد الجد شخصي والمتسم بالشفافية العالية والخصوصية التي هي غير عادتي الاجتماعية.

شقتنا كانت في الدور الحادي عشر ويزن في الدور الثامن. طلبت منه أن نستأجر شقة تضم غرفتين نوم فعلى الأغلب سنضطر إلى إيواء أحد من الأبناء حال تقرر إجراء العملية لشفيق. كنا لا نزال بين خيار الاستئصال من عدمه وخاصة أن الشهرين الأولين من العلاج الكيماوي سيقرران هذا الموضوع أكثر. أمورنا لم تكن واضحة بعدُ واحتمال العملية كان لا زال يلوح لنا. بدأت أعد العدة للعملية حتى أني اشتريت لشفيق عدة أردية، غيارات، ملابس داخلية ونعالًا وفوط تنظيف، للاستخدام في المستشفى. ولكن العملية كانت ستحدد بعد العلاج الكيماوي على كل الأحوال. لذا وللشهرين القادمين سنعيش حالة من الترقب والأمل والبحث المتزايد وإجراء عدة استشارات والخضوع للمزيد من الفحوصات.

ذهب شفيق في الثالث عشر من فبراير ٢٠٢٠ للمشاركة بمحاضرة رتبها منتدى الخليج الدولي Gulf International Forum. ذهب ابننا يزن معه والتقط بعض الصور له أثناء المحاضرة. كان شفيق لا يزال نشيطًا ويمارس عمله وهوايته المفضلة، التحليل والتحدث عن الوضع الراهن عالميًا، عربيًا وفلسطينيًا. أدلى بدلوه في هذه المحاضرة بما يسمى «صفقة القرن» وكيف أنها أضحوكة أخرى على الفلسطينيين الذين عانوا من إجراءات الاحتلال المستمرة. واعتبرها وثيقة غير محايدة تقدمها الولايات المتحدة «دون حلول» جدية.

توجه ابني يزن إلى البرازيل في آخر شهر فبراير في رحلة جامعية كمتطلب للماجستير في إدارة الأعمال في جامعة جورج تاون حيث ينهي شهادة Master of Business Administration MBA. ظهرت أول حالة كورونا في البرازيل وهو لا يزال هناك على

وشك الانتهاء من رحلته. قامت الجامعة بإلغاء جميع الرحلات المشابهة إلى أوروبا فقد كانت جائحة الكورونا بدأت بإرخاء ظلالها في كل مكان. كما ألغت جامعة يزن حفل التخرج الذي كنا نأمل في حضوره حتى أن شفيق قال قبل وصولنا واشنطن: «سأحضر حفل تخرج يزن حتى لو كنت على كرسي متحرك». كان شفيق لا يزال يعد حاله لعملية استئصال المعدة ولما بعدها. جائحة الكورونا لم تكن على بال أيٍّ منا.

توجهت إلى متجر قريب من البيت لشراء بعض الحاجيات. اتفقنا أنا وشفيق أن يجلس ويعمل في مقهى في منتصف الطريق، كانت هذه الجلسات مفضلة له فهو يحب العمل في أجواء الحركة والنشاط والناس يتحركون جيئة وذهابًا بشكل عام. عند عودتي أشار ليَ عبر زجاج المقهى فانضممت إليه واحتسينا القهوة معًا. جلس يحدثني عمَّا كان يكتب فهو وكما عهدناه يعمل بلا كلل أو ملل، ترجمة كتابه المبني على أطروحة الدكتوراه إلى اللغة العربية، برنامج أبجديات القضية الفلسطينية الذي صوره في الكويت وكان يعكف على البحث والكتابة والتجهيز لعدة حلقات أخرى، ناهيك عن مقالته الأسبوعية. أضف إلى ذلك أحاديثه وظهوره المتكرر عبر المنصات العديدة. فجأة قطع حديثه وبدأت الدموع تنهمر من عينيه كحبات المطر، كانت أول مرة أرى هذه الدموع بهذه الغزارة وكأنه تذكر السرطان. شفيق غير مصدق أن هذا يحدث له، أنا نفسي كنت غير مصدقة وبقيت هكذا إلى النهاية حتى بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة بين يديَّ.

وفي يوم الثاني من مارس ٢٠٢٠ بدأ شفيق في جلسة العلاج الكيماوي الأولى. كان القرار أن يخضع للعلاج الكيماوي فترة شهرين ثم يجري بعدها الفحوصات التي ستوضح مقدار تجاوب السرطان للعلاج. إضافة إلى كل ذلك فإنه سيحمل معه مضخة خاصة ستستمر بضخ العلاج الكيماوي في جسمه لفترة ست وأربعين ساعة أخرى بعد كل جلسة علاج. قبل الدواء الكيماوي وفي كل مرة، من المتعارف عليه أن يُعطَى المريض كورتيزون، ودواء آخر مضاد للغثيان ما كان يعطي شفيق جرعة طاقة هائلة. في هذه الأثناء كانت صديقتي أروى ترسل إليَّ صورها مع بناتي: حنين وزينة، وهي تحاول جاهدة تقديم النصح والإرشاد، ناهيك عن الدعم المعنوي والفعلي لهن ولنا كلنا كعائلة.

كان ببالي التفرغ التام لرعاية زوجي مريض السرطان الذي بدأ من اليوم الأول يعاني من الوهن جراء الآثار الجانبية للعلاج الكيماوي التي لم تكن جانبية قط. ولكني وبسبب السرطان والجائحة اضطررت إلى عمل كل التفاصيل وحدي: من قص، تقشير، طبخ، تنظيف ودون أي مساعدة خارجية ما سبب لي الأكزيما والالتهاب الجلدي الذي زاد من وطأته المعاناة والضغط النفسي الذي صاحبني إلى نهاية هذه الرحلة. أضف إلى هذا كله الممارسات الجديدة التي بدأت تصبح إلزامية على الجميع، ناهيك عن القراءة اليومية، البحث والتنقيب بشأن كل ما هو جديد عن مرض سرطان الجهاز الهضمي وخاصة المعدة، والأهم من ذلك كله رعاية زوجي المريض الذي كان لا يزال يعد نفسه لعملية استئصال المعدة.

إقامتنا لشهرين تحولت إلى ما يزيد على العام وبالتحديد ستة عشر شهرًا امتدت من ٧ فبراير ٢٠٢٠ حتى ٩ يونيو ٢٠٢١. عندما سألني ابني يزن في البداية عن مدة العقد الذي نوقعه استكثرت الستة شهور، وسألته: «هل يعقل أن نبقى هنا لأكثر من ستة شهور؟ لا أظن!» كان ببالي أن يجري شفيق العملية ونبقى إلى آخر صيف ٢٠٢٠ للراحة والنقاهة. سأكتشف لاحقًا كم كان طويلًا، ومضنيًا هذا العلاج وكم كنا نكتشف ونستكشف الطريق والخيارات أثناء هذه الرحلة الموجعة جراء السرطان والجائحة معًا! وهو ما يجعلني أتساءل باستمرار، أنحن مخيرون أم مسيرون في هذه الحياة؟

العلاج الكيماوي تطلب أن يوضع لشفيق ما يسمى ناقل port وهو عبارة عن قطعة مستديرة من السيليكون بحجم قطعة من فئة المئة فلس. عادة ما يتم وضع الناقل بإجراء جراحي لإدخال العلاج الكيماوي إلى الدم من خلاله، فلا الشرايين ستتحمل قسوة العلاج الكيماوي ولا حمل المضخة التي ستضخ المزيد من مزيج الكيماوي لليومين التاليين ممكنًا بدون الناقل، أضف إلى ذلك كله أن أجواء الجائحة كانت بدأت في التكشف.

أصبت بإنفلونزا ثاني يوم من بدء شفيق العلاج الكيماوي، خفت عليه من التقاط العدوى مني. كان قد بدأ العلاج الكيماوي وانخفضت مناعته بشكل كبير رغم أن هستيريا الكورونا

لم تكن قد بدأت بعد. مرَّت علينا عشرة أيام وأنا أعاني قلة النوم والطاقة والشهية. كنت أنام على الأريكة في غرفة الجلوس، أغطيها كاملة بالشراشف التي أغسلها بماء يغلي كل صباح. وخلال أسبوعين بدأت حياة التعقيم المستمر التي مهدت لها الجائحة كذلك. كنت أتحدث مع شفيق عن بعد أو أعطيه ظهري. كانت معجزة أنه لم يلتقط العدوى وهو المشهور بالتقاط الزكام سريعًا. هكذا ستكون رحلتي كمرافق مريض للسنة والسبعة شهور القادمة. بدأ شفيق يعاني من فقدان الشهية والطاقة ما وضعني أمام تحدي إلزامه بالأكل والشرب، فهو بحاجة إلى عافيته والحفاظ على وزنه ليقاوم السرطان. كيف يكون ذلك؟ كيف أتأكد من أنه يحصل على حاجته دون الإثقال عليه.

لطالما أحبَّ شفيق الحلول السريعة والطرق القصيرة التي تقوده إلى غايته، ما دفعه تاريخيًّا إلى تناول كميات كبيرة من المكملات الغذائية والفيتامينات، حتى أنه لطالما تناول المضادات الحيوية دون استشارة طبية. يوجد لدينا جزء من خزانته نسميه «صيدلية شفيق». كنا نبحث فيه عن أي دواء قبل جلبه من الصيدلية الحقيقية. كانت المضادات الحيوية وصفته السحرية السريعة التي تمكنه من السفر الدائم وعدم التغيب عن أي منبر يمكنه أن يوصل صوته عبره، أكان لقاء تلفزيونيًّا، أم إذاعة أم صحافة أم حضور مؤتمر أو لقاء. عند كل لقاء وكل محاضرة وكل مقال، كان عمله له الأولوية في حياته، عاش وعشنا معه حالة طوارئ دائمة.

بعد عودة يزن من البرازيل آخر فبراير، انضمت ابنتي زينة إلينا في مارس ٢٠٢٠ عبر واحدة من آخر الرحلات التي قدمت إلى الولايات المتحدة. كانت حياتنا وإلى لحظة انضمامها إلينا، حياة هدوء تام. كنا، شفيق وأنا في شقتنا فقط في الدور الحادي عشر ويزن في شقته في الدور الثامن. العلاج الكيماوي والمستشفى والفحوصات والإجراءات اللامتناهية استمرت معنا تدريجيًّا دون خطة أو وضوح، لفترة ستة عشر شهرًا في الولايات المتحدة، فترة الجائحة القاسية. بدأت بطلب بعض القراءات التي كنت أنوي قراءتها في الفترة القادمة ظنًّا مني أن بقاءنا سيستمر على الأغلب إلى آخر صيف ٢٠٢٠. مثَّل ذلك لي فرصة

ذهبية للقراءة غير الأكاديمية التي هي إحدى هواياتي المفضلة والتي كنت لا أجد فراغًا لها قط.

اتصلنا بأصدقائنا، منذ أيام الدراسة، من أوستن تكساس. هؤلاء الأصدقاء الذين مكثت عندهم أنا وبناتي حنين وزينة، أثناء احتلال الكويت ١٩٩٠. رغم بُعد المسافات بين الكويت وواشنطن فإنهم لا يزالون من أعز أصدقائنا. تناولنا العشاء في مطعم راقٍ في واشنطن العاصمة. كانت المطاعم لا تزال تعج بالناس إلى درجة أنني لم أتمكن من أخذ مكاني على الكرسي دون أن أضرب أو أصطدم بأحد. «ما هذا؟ هل الربح المادي أهم من الراحة الفردية!» الناس كانت لا تزال في زحام بعضها فوق بعض ومفهوم التباعد الاجتماعي لم يكن رائجًا، الربح المادي هو الرائج، هو الأهم! هل هذا يعني أن قضية التباعد الاجتماعي هي إحدى حسنات الجائحة إذا كان لها من محاسن!

الباب الثالث: الحياة مع الجائحة

انخفضت مناعة شفيق رويدًا رويدًا وبدأ يظهر عليه التعب نتيجة العلاج الكيماوي، ثم إن الجائحة بدأت ترخي بظلالها. بدأنا بالتعود على الإقفال الجزئي تدريجيًّا ثم الكلي وابتدأت فترة الابتعاد عن البشر بدلًا من التقرب منهم. بدأنا البحث، جلب وشراء الكمامات أينما وُجدت. لم تكن الكمامات ولا ممارسة التعقيم ومراعاة المسافة بين الآخرين من الممارسات العادية ولكنها وبأجواء الجائحة أصبحت ممارسة مفروضة على الجميع. لم تسنح لنا حتى الفرصة لرؤية الأصدقاء في الولايات المتحدة رغم وجودنا على مقربة نصف ساعة منهم. أخي الذي يقطن على بعد ساعة كذلك لم تسنح لي فرصة رؤيته حتى اليومين الأخيرين قبل مغادرة الولايات المتحدة.

رغم أننا بدأنا نخاف ونتجنب الآخرين إلا أننا تقربنا أكثر بعضنا من بعض لنحمي أنفسنا من غير المعلوم الذي قد يجلبه الآخرون، كنا أنا وزوجي بدايةً ثم ابني يزن وفيما بعد ابنتي زينة التي انضمت إلينا في الأسبوع الأول من مارس ٢٠٢٠. مارس كلاهما الحجر الصحي بحذافيره خوفًا على والدهم وعليَّ. أما حنين فكانت عبر الهاتف معنا من الكويت، والدها وأنا وبشكل دائم. كلنا تشاركنا رحلة غير المعلوم هذه في اكتشاف السرطان والجائحة التي كانت سرطانًا آخر كان يخفي لنا مفاجأة تلو الأخرى.

كنا على اتصال دائم مع الأردن كذلك، حيث تواجدت أمي أثناء الجائحة، نرقب ما يستجد بشأنها. وفي الكويت حيث ابنتنا حنين والأهل من طرفي و طرف شفيق وفي الولايات المتحدة حيث نقطن مؤقتًا. كان التواصل دائمًا مع الأهل، فشفيق كان يتواصل دائمًا مع أشقائه ومع الأصدقاء والمعارف وما أكثرهم خاصة من طرف شفيق، الشخصية العامة المعروفة والمحبوبة. من طرفي كانت بشكل خاص أمي التي كنت أذرف الدمع معها وأخبرها بمكنوني، وعندما تسمح لي الفرصة وأستطيع الابتعاد عن واجباتي اليومية من رعاية شفيق ومحاولة إطعامه ثم القراءة التي كنت أستيقظ أبكر من باكر لها وقبل أن

يصحو شفيق. ناهيك عن هذا كله صديقتي ورفيقتي في هذا الدرب المؤلم د. أروى الشاعر، التي لازمتنا في هذه الرحلة منذ بداية تشخيص شفيق وإلى لحظة وفاته، أي في كل اللحظات الحرجة التي كنت أنهار فيها، أغضب وأبكي وأستكشف وجهات النظر المختلفة والجديدة والغريبة بشأن علاج هذا السرطان اللعين.

نشاطي اليومي كان ينصبُّ على رعاية شفيق الذي بدأت أموره تأخذ اتجاهًا مختلفًا منذ بدء العلاج الكيماوي والذي تمت جدولته كل أسبوعين. يوم العلاج وبعد ضخ الكيماوي في جسمه، عادةً ما كان يصبح شفيق أبيض اللون، لا لون له ثم يتحول إلى الأصفر ويبدأ في فقدان شهيته للطعام، بعد ذلك تبدأ فترة فقدان الطاقة والتعب. استمر هذا النظام لفترة عام وأربعة أشهر في الولايات المتحدة، وشهر واحد في الكويت. إضافة إلى ذلك كله وحسب العلاج في وقته، تبدأ الآثار الجانبية لكل علاج ترافق ما دمره العلاج الكيماوي. كل مرة كان علينا الرجوع إلى جدول الآثار الجانبية للعلاج الكيماوي إضافة إلى أي مزيج آخر يرافق الكيماوي بوقتها. بدأ نمط العلاج الكيماوي يتضح لنا وأصبحنا نتنبأ بما سيحدث مع شفيق. مثلًا بعد جلسة العلاج الكيماوي الثاني ارتفعت معنوياتنا لأن المؤشرات كانت إيجابية وخاصة مؤشر السرطان. ولكن بعد جلسة العلاج الكيماوي الثالثة تعب شفيق جدًّا وفقد شهيته وطاقته وبدأ يعاني من آلام في الظهر واليدين. أما أنا فكان عليَّ أن أصمت، أصبر وأرقب. هذا سلاحي طوال هذه الرحلة الموجعة.

كنت أكلم أروى وأتبادل المعلومات وآخر التطورات معها بشكل شبه يومي. أروى ووالدتي كانتا الاثنتين اللتين كنت أنتحب معهما وأشكو لهما معاناة شفيق الدائمة والمستمرة وبالتالي معاناتي. أما بالنسبة إلى الآخرين: أخواتي، صديقاتي، قريباتي، زميلاتي وزملائي، فكنت أضع جدولًا لهن. لم يسعفني الوقت ولا المزاج للتحدث. كنت أفضل البقاء وحدي أرقب شفيق بصمت. وقتي كان موزعًا بين التنظيف، الطبخ اليومي والتحدث معه في أي شأن وقتما استطاع.

وعندما انضمت ابنتي زينة التي كانت تعمل في إحدى مدارس الكويت الخاصة، والتي سنحت لها فرصة متابعة تدريسها عبر الإنترنت On Line كانت المطارات بدأت تقفل وشركات الطيران تُوقِف رحلاتها. المطاعم أقفلت والأعمال توقفت. أصبح الناس يلبسون الكمامات والقفازات ويمارسون التعقيم، كما بدأ الجميع يحس بهول جائحة الكورونا. بدأت إحصائيات المصابين والمتوفين جراءها. الدنيا تغيرت والممارسات تبدلت. انقلبت حياتنا رأسًا على عقب، السرطان والكورونا معًا.

هكذا أصبحت حياتنا الجديدة حياة رتيبة ولكنها اتسمت بالهدوء المصحوب بالنشاط. لطالما سمعت أن في الحركة بركة. كل ما كنت أفعله كان مرهقًا وكنت أعاني من أوجاع في الظهر والكتفين لم أعد أحس بها. من جهةٍ، أنا لا أجرؤ على الشكوى وأنا أمام مريض يكابد الموت يوميًّا، ومن جهة أخرى حركتي الدائمة، حتى لو كنت متعبة جدًّا، قد أفادتني وخلصتني من الآلام التي كنت أحس بها سابقًا، في الحركة بركة فعلًا.

بالقرب من شقتنا يوجد متجر بقالة كبير كنت أشتري حاجياتي منه. الخضر والفواكه وأي احتياجات أخرى، ولكن عندما أقفلت الدنيا نتيجة الجائحة بدأت أتعود على الطلب عبر الإنترنت. جائحة الكورونا أقفلت أعمالًا ولكنها فتحت أعمالًا أخرى اعتمدت وخضعت للشراء الإلكتروني كما لم يكن قبلًا، وأنا عادةً، كنت أحب التنقل بين رفوف الأسواق واكتشاف ما هو جديد وقراءة كل ما يكتب عن المحتويات وعليها. حاولنا جهدنا المحافظة على المشي اليومي عندما كان عدد المشاة والمارة قليلًا وفي الفترة الأولى التي كان شفيق لا يزال يستطيع المشي فيها. في بعض الأحيان كنت آخذه ليمشي حتى لو لعشر دقائق. ولكن في مراحل متقدمة من المرض لم يكن يستطيع المشي حتى لعشر دقائق. في فترة من الفترات استخدم العصا ليستند إليها وفي فترة أخرى استند إلي وفي بعض الأحيان وعندما كانت تتسارع دقات قلبه لم يمشِ قط.

جلسة العلاج الكيماوي الثانية كانت بعد أسبوعين من الأولى، أي منتصف مارس ٢٠٢٠. بعد جلسة العلاج الكيماوي الثانية ارتفعت معنويات شفيق ومعنوياتنا جميعًا لأن المؤشرات

كانت إيجابية وخاصة مؤشر السرطان Cancer Markers. ولكن ذلك لم يستمر طويلًا فجلسة العلاج الكيماوي الثالثة كانت صعبة.

تعب شفيق جدًّا وبدا في حالة من فقدان الشهية والطاقة ثم إنه بدأ يعاني أكثر من آلام في الظهر واليدين، وبدأ يحاول إجراء بعض التمارين لهما وجلب كل ما يجد على الإنترنت ليساعده. وفي ليلة من هذه الليالي كنت أغفو على السرير وإذا بي أفتح عينيَّ لأجد شفيق على ظهره متكورًا في الفراش بوضع القرفصاء، ركبتاه تُجاه وجهه، أي بعضهما تُجاه بعض، فما كان مني إلا أن مددت إبهامي أحاول لمسه كما فعل الكائن الفضائي ET القادم من خارج الأرض في فيلم ET الشهير. ما كان من شفيق إلا أن بادرني بالسؤال: «تغريد! ما بك؟» طبعًا جفلت من الخوف لأني لم أدرِ ما أفكر فيه في هذه الحال فأجبته بأني كنت قد قرأت مرة أن الإنسان عند الموت يبقى في نفس الوضع الذي يموت فيه. وقد كنت مرعوبة من فكرة أن يكون جرى له شيء. ضحكنا كلانا. هذه المواقف والكثير المشابه لها كانت تخفف من هول الوضع الذي نعيشه رغم كل آلامه، أوجاعه ومعاناته.

في أوائل هذا الصيف من عام ٢٠٢٠ تفجرت قضية العنصرية ضد الأمريكيين من أصل إفريقي وخاصة بعد موت جورج فلويد الرجل الأسود، جراء اختناقه بعد أن داس على رقبته البوليس الأمريكي الأبيض ووضع ركبته على رقبة جورج الذي ردد لرجل البوليس مرات عديدة: «لا أستطيع التنفس I can’t breathe». عنصرية رجل البوليس الأبيض التي سجلتها الكاميرات فجَّرت مشاعر تم كبتها سنين عديدة. وفي الحقيقة قضية جورج فلويد فتحت باب قضايا الفساد الذي وصل إلى البوليس الأمريكي وأصبحت كلمات جورج فلويد الأخيرة شعار المرحلة «لا أستطيع التنفس I can’t breathe».

وفي مايو ٢٠٢٠ من نفس العام انفجرت قضية حي الشيخ جراح في القدس المحتلة التي أتت تعبيرًا عن الهوية الفلسطينية واضطهادها. بدأ أولادي يشاركون بكل أشكال التعبير وبكل أشكال المقاومة، من مظاهرات، احتجاجات، مسيرات، واستخدام كامل لكل وسائل التواصل الاجتماعي التي وظَّفوها للدفاع عن الهوية الفلسطينية المستباحة. يزن وزينة

شاركا بدورهما في النشاطات التي بدأت تنظم حيث كنا في واشنطن وشفيق كالعادة كان لا يوفر أي فرصة ليعبر بها بكل الوسائل المتاحة له من تلفاز، إذاعة، ومقالات أسبوعية وغيرها والتي حافظ عليها إلى آخر رمق، إضافة إلى كل أشكال التعبير الأخرى التي أتيحت له عبر المنصات الإنترنتية المختلفة.

في الثاني عشر من يونيو وبعد أن فرغت من التنظيف الأسبوعي، كلمت أروى وأخبرتها أن الفحوصات أظهرت ضمورًا ملحوظًا في الورم وبناء على هذا التطور ازدادت رغبتنا في إجراء المزيد من الاستشارات التي ستزيد من فرص النجاة. بدأنا نضع الخطط ونتبادل المعلومات بشأن من سيكون التالي، كان الاتفاق مع صديقتي أن يكون Mark Rosenberg, MD الذي كان قد فقد والدته بمرض السرطان بشكل مفاجئ ما دفعه إلى إنشاء Foundation of Alternative and Integrative Medicine. بدأت بقراءة كل ما كتبه وكل ما كتب عنه قبل الانتقال لإجراء الموعد والاستشارة معه. فلسفتي كانت أن أدع العلاج التقليدي يأخذ مجراه وأعززه بالعلاج البديل أو الموازي أو المكمل.

في هذا اليم الكبير من المشاكل العلاجية والسياسية كنا لا نزال نعيش، كما تعودنا على أن لا فرق للوضع السياسي عن الشخصي، كلاهما مرتبطان بعضهما ببعض، وفي حالنا كعرب ومن أي جنسية كنا، لا مكان للابتعاد عن السياسة.

كانت زينة قد بدأت تعد للسفر والعودة إلى التدريس والكويت. بعد أن أوصلت زينة إلى المطار أخذنا شفيق، أنا ويزن، الذي كان يكابد ألمًا أَلمَّ به وسبَّب له الغثيان والاستفراغ إلى المستشفى. عند مدخل طوارئ المستشفى أخذوا شفيق للتحقق من أنه ليس مصابًا بكورونا أولًا. طلبوا منا أن نتركه ونعود بعد ساعتين. ظللنا ندور بالسيارة، يزن وأنا، ثم اتصلت المستشفى بنا وطلبوا منا العودة لاصطحاب شفيق من المستشفى تمام السادسة من صباح اليوم التالي. اقترح عليَّ ابني أن يوصلني ثم يعود هو صباحًا ليقل والده.

وصلت ابنتي زينة الكويت أوائل أغسطس وفي الرابع من أغسطس تفاجأنا جميعًا بانفجار مرفأ بيروت. كانت ضربة موجعة لنا شخصيًّا وسياسيًّا. كان قلقنا لا يوصف على أصدقائنا

ومعارفنا في لبنان، ناهيك عن حقيقة أن ذلك يمثل لنا قمة التدني في الوضع العربي السياسي. توالت الأحداث السياسية في العالم العربي وهو ما وضع شفيق في خانة المشاركين بآرائهم، ولكن هذه المرة بدأ يفقد حماسه للمشاركة لتعبه الشديد، بدأت أرى شفيق مختلفًا كليًّا عن شفيق الذي عرفته إلى ما يزيد على الأربعين عامًا.

شهرا أغسطس وسبتمبر كانا شهرين اتسما بالغرابة والكآبة، وحُمَّى ما سمي بـ«التطبيع». كنا نشاهد هذا التطبيع عبر التلفاز ونرقب قمة الخنوع والتخاذل. وهنا لا بد من قول حقيقة أن إحدى مقولات الملك فيصل الشهيرة كانت: «علِّموا أولادكم أن فلسطين محتلة، وأن المسجد الأقصى أسير، وأن الكيان الصهيوني عدو، وأن المقاومة شرف وأنه لا يوجد دولة اسمها إسرائيل». الكورونا، السرطان، ثورة السود في أمريكا، قضية حي الشيخ جراح والآن «التطبيع» لا عدو لنا؟ ماذا يحدث؟

كان رأي شفيق ومنذ البداية أن قضية تفجير مرفأ بيروت هي من فعل فاعل كالإسرائيليين، أو أنهم وجدوا فرصة ذهبية ليتسببوا فيها. كما كان يردد دائمًا أن ما جرى ليس تطبيعًا وإنما حِلف، وكان يسوق كل الأسباب لذلك. وقبل نهاية شهر سبتمبر بالتحديد في العشرين منه توفي أمير الكويت «أمير الإنسانية وعميد الدبلوماسية» كما عرفه الجميع، الشيخ صباح الأحمد الصباح وفي أجواء الجائحة كذلك.

أدلى شفيق بدلوه بعدة إطلالات بعد وفاة أمير الكويت، كما أنه خصص مقالًا عن هذا الحدث فكتب في صحيفة القدس العربي مقالًا بعنوان: «رجل دولة: الشيخ صباح الأحمد»، من ضمن ما قال فيه: «كل عهد فيه سلبيات وإيجابيات، لكن الشيخ صباح الأحمد ظل فوق المرحلة، أحبته الناس بسبب مبادئه وشجاعته وحرصه على التوازن». وبعد ثمانين يومًا توفي نجل الأمير الراحل الشيخ ناصر صباح الأحمد في العشرين من ديسمبر. كان مشهورًا بمبدأيته وعزمه على محو بؤر الفساد، ناهيك عن دوره في مبادرة الصين «الحزام والطريق» لإنشاء الحزام الاقتصادي لطريق الحرير ومدى توافقها مع رؤية الأمير بتحويل الكويت إلى مركز مالي واقتصادي مع العام ٢٠٣٥.

لم يقتنع شفيق برفض مستشفى جورج تاون للعملية حيث يتلقى العلاج في واشنطن وبدأ بالتململ من أمريكا وفتح الخط مع فرنسا، وتحدث مع عدة أماكن ومنها مستشفى Montpellier الذين كانوا ضمن خياراتنا في البداية قبل أن نترك الكويت والذين بدورهم أثنوا على خيار واشنطن وأكدوا له أنه بغياب خيار إجراء العملية فإنهم ينصحوننا بالبقاء في واشنطن في أجواء الكورونا ما هدَّأ من روع شفيق قليلًا.

للتقليل من الذهاب إلى المستشفى بدأ شفيق يأخذ علاجه الكيماوي على شكل حبوب بدلًا من الذهاب إلى المستشفى ولكن الآثار الجانبية لهذا العلاج كانت مزعجة جدًّا له، بدأت أطراف أصابعه بالتشقق والاختلاف في اللون، ثم إنه كان يكابد الغثيان وصعوبة البلع والاستفراغ كلما حاول الأكل، كنت دائمًا أصارع شفيق على لطفه الدائم الزائد مع الآخرين حتى لو على حساب صحته الشخصية فهو الذي لا يود تغيير الطبيب حتى لو عنى ذلك فقدانه حياته، ولكني كنت أراقبه وأوجاعه التي كانت تقتلني حتى أني وددت اقتناص أي فرصة ولو عنى ذلك تغيير طبيبه.

شكَّل ذلك لي فرصة قد تكون للنجاة وقد لا تكون ولكنها بحاجة إلى أن تؤخذ. قد يكون طبيبه صادقًا وهو متدرب ومتمرس على الحديث المباشر الصريح عندما أخبر شفيق أنه لن يعيش أكثر من عامين ولكني أنا المؤمنة بقضاء الله وجدت ذلك فظًّا ولا مكان فيه للأمل ولا للإيمان بقدرة الله وقدر شفيق. كنت أقرأ عن كل الحالات التي شفيت رغم أن صديقتي الطبيبة د. أروى كانت تخبرني بعدم الاستمرار في هذا الطريق وأن حالة شفيق واضحة رغم تأييدها الكامل لي، لنا ولخياراتنا، فهي كانت مستعدة لتعطي شفيق أي فرصة، كل فرصة. شفيق من جهة أخرى كان يقرأ ويبحث عن تفاصيل تطور هذا المرض للحالات التي انتهت بالمعاناة والوفاة وكأنه عاشها أو أراد أن يعيشها. أنا وددت إيجاد أي فسحة أمل لمنحه إكسير الحياة. هو زوجي، رفيق دربي ووالد أبنائي. نظرت إليه نظرة حادة وقلت: «المريض اللطيف يموت، يجب أن تصر على حقك وما تريد. أتود أن تموت؟» وفي نوفمبر ٢٠٢٠ ضقت ذرعًا بلطف شفيق وإذعانه لرأي الطبيب الذي كان يسميه مازحًا

«ملك الموت». طلبنا من المستشفى رأيًا ثانيًا عن وضع شفيق المرضي وتبعناه بطلب التحويل إلى طبيب آخر.

الطبيب الجديد قرر البدء في العلاج المناعي Immunotherapy لشفيق وإيقاف حبوب الكيماوي التي كانت تزعجه مباشرة وتسببت في آثار جانبية مزعجة. تغير لون أطرافه وتشققت أصابع قدميه ويديه، ولهذا كانت آمالنا وتوقعاتنا عالية في العلاج المناعي المرتقب، فالعلاج المناعي جديد وهو واعد جدًّا لمرضى السرطان! قرأت كتاب «ثورة العلاج المناعي» لجايسون ويليامز The Immu-notherapy Revolution وتبعته بإجراء استشارة معه بشأن وضع شفيق. أجرى شفيق ثلاث جلسات مناعية، أي جلسة كل أسبوعين من هذا العلاج الذي بدأ يوم الرابع من ديسمبر ٢٠٢٠، عانى شفيق فيها من التعرُّق الدائم إلى درجة تغيير فراشه يوميًّا ناهيك عن تعكر المزاج وتغيره. بدأ يصيح عندما يضيق ذرعه «سأقتل هذا اللعين». كم تمنيت لو كان باستطاعتي مد يدي إلى حلقه واقتلاع هذا السرطان لأساعده. كم كان موجعًا رؤيته يعاني، يكابد الألم، يفقد وزنه، ويذوب تدريجيًّا.

قبل نهاية نوفمبر ٢٠٢٠ وبالتحديد السابع والعشرين تعرض شفيق لطارئ أدخله المستشفى، بدأت إحدى رئتيه بتجميع السوائل. وبدأ يعاني من آلام في صدره واتضح أنه تعرض لتجلط في الرجل والرئة. حين تم سحب السوائل من محيط رئته، يخبرني شفيق، أنه وبعد ربع ساعة فقط بدأت دقات قلبه في التسارع. دقات القلب المتسارعة لازمته إلى النهاية وفي أغلب الأحيان وخاصة عندما كان يفقد من وزنه الكثير ولكن وزنه كان من الصعب الحفاظ عليه. بقي شفيق في المستشفى خمسة أيام وبسبب الكورونا لم نستطع رؤيته أبدًا. دخل شفيق المستشفى تسع مرات في العام والنصف ولأسباب متفرقة وعديدة آخرها كان فبراير ٢٠٢١. حصوة في الحالب، جلطة في الرئة والرجل، التهاب في الناقل مرتين إلخ..إلخ. في كل مرة فحوصات شاملة، أدوية، علاجات، فحوصات وزيارات مختلفة ومع كل هذا ترقب وتوجس وأمل في غد أفضل. قبع شفيق تحت ضغط نفسي هائل وقبعت تحته أنا كذلك. تعرض للوخز والإبر حتى أن جسده كان كالخريطة لم يبقَ فيه جزء دون

ثقب أو وخز. لم يكن شفيق يستسيغ الأكل عامة أثناء المرض وأكل المستشفى خاصة. فقد حاسة التذوق كليًا وكره الأكل والشرب بشكل عام. كنت أعد له ما أتخيل أنه قد يستلذه وأضعه له في مكتب الاستقبال مع ما يمكن أن يكون طلبه مني. كنت أبذل الجهد في محاولة تقرير ما قد يستسيغه من طعام فإحساسه بالطعم تغير جذريًا. أجمل شعور كان أن يخبرني أنه استلذ ما جلبته وأكل أغلبه أو كله. هو كان يعاني من الجوع ولكنه لا يستلذ الأكل ولايتذوقه. كنت آخذ أي غيارات وسخة أو أشياء يود مني تنظيفها له أو التخلص منها، وهكذا دواليك.

في فترة من الفترات وأثناء مكوثنا في الولايات المتحدة، كذلك وبعد أن أصابت شفيق جلطة الرئة، كان لا يستطيع النوم إلا على الكرسي المائل، رجتني صديقتي د. أروى ألا أدعه ينام مسطحًا خوفًا من الاختناق. نام عدة ليالٍ على الكرسي المائل الذي كان يجلس عليه أغلب الوقت إلى أن جلبت له ابنتي زينة مخدة خاصة مائلة ظل يستخدمها في الفراش.

مساء السادس من يناير ٢٠٢١ هالني شكل بطن شفيق الذي بدا أكبر من المعتاد. كان شكله كشكل بطني أثناء الحمل. بعد أن نام شفيق ليلًا جلست أقرأ وأبحث، شككت أنه يعاني مما يسمى Ascitis. كتبت رسالة إلكترونية للممرضة كالعادة وفي كل مرة كنت أشك في شيء وخلدت إلى النوم. كلمتني الممرضة صباحًا حال قراءة رسالتي وكالعادة بدأت تسألني عدة أسئلة لتحسم الحالة ثم اتفقنا على أن آخذ شفيق إلى المستشفى ليتم قياس كمية المياه وسحبها من بطنه. تم سحب ما يعادل ٣ ليترات من المياه من التجويف البطني. الغريب أنه في هذه الليلة لم يتعرق ولكنه كان يعاني من خدر في إحدى رجليه. هل كان هذا الخدر من عصب أصيب؟ الآن يجب تقصِّي هذه الجزئية. مواعيد أخرى، إجراءات أخرى، لوعة وانتظار، تأمل وتوقع، تضرع ودعاء. لطالما أذكر انتظاري بجانب المستشفى والدنيا برد أو مثلجة، أقرأ أدعيتي وأذرف الدموع وحدي.

أثناء الزيارة التالية لطبيب شفيق والتي تسبق عادة جلسة العلاج الكيماوي وتتضمن فحصه وإجراء تحاليل الدم بما فيها مؤشرات السرطان Cancer Markers أردف الطبيب لشفيق: «يجب أن تقرر أين تود أن تنهي أيامك، هنا أم بالكويت. في كل حالة يجب أن نضع الخطة اللازمة». خطة هذا الطبيب كانت البدء في العلاج الإشعاعي لتسهيل البلع أكثر، الذي كان بدأ يتدهور، وذلك إلى جانب الكيماوي والمناعي. فكرة تعاضد Synergy طرق العلاج مع بعضها فكرة تلقى قبولًا في المجتمع الطبي وهي منطقية جدًّا. بدأ شفيق أربع عشرة جلسة من العلاج الإشعاعي الموجه إلى منطقة المعدة يوم الرابع من ديسمبر ٢٠٢٠، على أمل أن يتحسن بلعه الذي كان يؤلمه ويعيق قدرته على الأكل، ناهيك عن الاستفراغ والغثيان المصاحبين.

كنت أتمزق في كل مرة يسأله الطبيب عن أيامه الأخيرة. لِمَ يسأل؟ هل يعني ذلك أنهم عمليون أكثر منا؟ هل يعني ذلك أننا قدريون أكثر منهم؟ أنا لا أدري، ولكني أعرف أنني عندما عدت إلى الشقة ذاك اليوم اتصلت بالممرضة المختصة وطلبت منها أن تقول للطبيب ألا يذكر الموت أبدًا. «أنا أعمل للحياة يوميًّا مع زوجي ولذا أرفض الحديث عن الموت عن بكرة أبيه».

كان شفيق لا يزال يكتب ويتحدث على التلفون ولكن بدأ نشاطه يقل وبدأ صوته يتأثر، وبشكل عام وضعه كان يتدنى. في هذه الأثناء أخبرتني ابنتي حنين بتسرب مياه في البيت في الكويت. أثناء حديثي مع رفيقتي د. أروى عن الأسبرين واستخداماته لبعض أنواع السرطان حسب ما أسفر عنه بحثي، طلبت منها، أي أروى، أن ترسل إلى بيتي أحدًا من شركة زوجها المهندس سمير ليعالج الأمر. ها أنا موزعة كالعادة بين الكويت وأمريكا. وها هم أولادي كذلك بين البلدين. حنين وزينة في الكويت ويزن وأنا في الولايات المتحدة مع شفيق.

كان شفيق يرفض الأكل وكنت أحاول جاهدة وبشتى الطرق أن أغريه ليأكل أي شيء. كنت أذهب إلى أي مكان لأجلب له أي أكل يطلبه أو قد يستسيغه عندما لا يتوفر الطلب السريع.

لطالما كنت أمازحه قائلة: «لو أننا حديثا زواجٍ كنت سأزعل من أنك لا تحب ما أعده لك». ظل يتذوق بعض الأكلات إلى آخر هذه الرحلة، مثل الكفتة بالطحينية، ورق العنب والمحشي الحامض والمسخن الفلسطيني وخاصة أثناء اليوم الذي كان يخضع فيه للعلاج، ولأنهم عادة ما يبدءون العلاج بالمنشط Steroid والكورتيزون فقد يكون ذلك لأن هذه الأكلات تتميز بطعم حادٍّ وقوي. كنت أوصله للعلاج وأعود إلى الطبخ والتنظيف. أثناء مرضه كان شفيق يكره كل الأكل وهو الذي كان يحب كل ما أُعده.

في مرة كان يعاني من فقر الدم «الأنيميا». قدت السيارة لساعة كاملة ذهابًا ثم ساعة ثانية إيابًا لأجلب له كبد خروف طازج بعد أن وعدني بأكله. أعددته له بسرعة بعد العودة لكنه لم يتمكن من أكله، حاول ولم يستطع. أخذت كل ما أعددته له ورميته في القمامة فورًا. لم يستطع أكله أو تذوقه. صراع دائم مع الأكل والشرب وصعوبتهما. كل ذلك كان يُفقده الوزن وفقدان الوزن يزيد من تسارع دقات القلب. دقات القلب التي تصبح متعبة حتى أنه لا يقوى على المشي أو الوقوف.

كنت أحاول ألا أستخدم السكر نهائيًّا لشفيق التزامًا مني بنظريات العلاج التكميلي التي كنت أحاول تتبعها. كنت لا أجلب السكر إلى البيت بتاتًا وأستبدله ببدائل طبيعية أخرى، مثل العسل العضوي، عسل المانوكا وبحدود دنيا. إضافة إلى المحليات الطبيعية، مثل سكر فاكهة المونك وغيرها. بحثي الدائم والمتواصل أوصلني إليها. كنت أحاول عمل أي شيء يريده أو يطلبه. كان في بعض المرات يرينا صورًا على الإنترنت لنطلبها له أو نجهزها له. كان يحاول جهده أن يجد شيئًا يستسيغه ويأكله ولكنه لا يأكل. كأنه كان يحاول أن يختلق ما قد يزوده بالطاقة، بالقدرة على المتابعة.

في كل ليلة بعد أن أفرغ من المساج الليلي ليدي شفيق ورجليه كان يقول لي ليليًّا قبل النوم «أخ يا تغريد لو عرفتِ بما أحس به الآن؟» ثم يبدأ بإخباري ما يود حتى يبدأ الدواء المنوِّم يأخذ مفعوله وأتمكن من تركه ليغفو! أنا أعرف أنه كان لا يغفو. منذ تم تشخيصه بالسرطان لا يغفو إلا ممسكًا بيدي وقابضًا عليها بقوة.

مكاني الوحيد للتكلم مع الله ومناجاته، هو الحمَّام اليومي، حالما كانت تنهمر المياه وتتدفق، يعلو صوت هديرها ويعلو صوتي مناجيًا خالقه «يارب! يا رب! يا رب!» كنت أذرف دموعي كما لم يحدث قبل. كانت الدموع تختلط بالمياه التي هي من نعم الله التي لا تحصى. لكني اكتشفت كذلك أن دموعي كانت إحدى نعم الله التي لا تحصى، التي تنقيني وتريحني. أشكر إلهي يوميًا على هذه النعمة التي مكنتني من متابعة دوري ورعاية مريضي. هكذا زودتني صلاتي والدعاء والدموع بالقدرة على التحمل والصبر حتى أني وبعد موت شفيق لا أستطيع التوقف عن البكاء. كأني أمسكت نفسي لأتعامل مع الوضع في وقته لأقوي شفيق، ولكني الآن وبعد فقده لا أقوى على التوقف عن البكاء. كأني كنت أشغل نفسي لأعيش ما كنت أخافه وأهرب منه.

واجهتنا، شفيق وأنا، في هذه التجربة المريرة مواقف عديدة مضحكة مبكية كانت تساعدنا. إن النظرة التهكمية إلى بعض تفاصيل الحياة اليومية، رغم قساوتها تساعد في كسر رتابة الأمور. مثلا كنا نذهب إلى المستشفى يوميًا للعلاج الإشعاعي، امتدت على مدى أربع عشرة جلسة. الذهاب إلى المستشفى كان له طقوسه التي فُرضت على كلينا، وأنا هنا لا أتحدث عن الجائحة ولكن ما فرضه علينا مرض شفيق.

ابتعت طقم كراسي بلا ظهر أو أيدٍ Stools. وضعت واحدًا تحت الدش، واحدًا أمام مغسلة الحمام، واحدًا عند باب الشقة وواحدًا أحمله معي أضعه داخل المصعد ليجلس شفيق عليه ثم آخذه معي إلى السيارة. كانت هذه الكراسي ترافقنا كلما تسارعت دقات قلبه فيجلس عليها عندما لم نكن نستعمل كرسي المستشفى المتحرك.

كنت أنزل شفيق أمام باب المستشفى ثم أذهب أوقف السيارة بمواقف السيارات لأني كنت أرفض إعطاءها لخدمة الإيقاف كي لا يقودها أي أحد. بعد أن أركن السيارة أعود إلى دفع الكرسي المتحرك ولطالما كنا نضحك وخاصة عندما يواجهني منحدر. كنت أمازحه قائلة: «إياك أن تفضحني وتتدحرج أو تقع هنا وأنا أدفع الكرسي، فتصبح مستر بين وأنا مسز بين Mr & Mrs Bean». وكما هي الحياة فلكل صعود يوجد هبوط، والعكس صحيح، وهذا

المنحدر الذي أخذناه سنصعده ثانية. وأقول: «يا رب» وأدفع بالكرسي. كنت أمازح شفيق لأخفف عنه ونضحك معًا على الموقف.

طالما كنت وعند كل إجراء جراحي أو طبي أمازحه قائلة: «من قابلت اليوم، أنا متأكدة أنك عرفت قصة حياتهم!» لطالما اشتهر شفيق بحب معرفة كل تفصيل عن أي شخص يقابله، فما بالك بمن يمتلك الدواء والمسكنات! كنت أمازحه قائلة: «حسنًا، من قابلت! تأكدت أنك لو احتجت المزيد من المسكنات سيعطوك إياها!» شفيق كان يكره الألم! من يحب الألم!

لطالما مازحته ونحن في السيارة إلى المستشفى: «شفيق، أنا أجهز نفسي لنشيخ معًا ولأن ترعاني في كبري! إياك أن تخذلني، أرجوك صارِع هذا السرطان اللئيم، أنت قوي وستقدر عليه. لا تخذلني أرجوك!» كان يطأطئ رأسه ويقول لي: «إن شاء الله».

ثم إني لطالما وعندما كنت أعاني من شد عضلي في الليل وأثناء النوم، يقوم ويشد لي رجلي كما كان تاريخيًّا يوقظني عندما أعاني من كابوس ليلي وأصرخ. شفيق مات ولن يقوم بذلك الآن! الألم ينتابني، الألم ينتابنا جميعًا.

عندما أطلقت ابنتنا حنين أغنية حثته بها على المقاومة واعتبرت جسده مرآة للمقاومة الفلسطينية قائلة: «قاوم!» بكى متأثرًا. الحق يقال أنه قاوم بكل ما أوتي من قوة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

اضطر ابني يزن إلى الذهاب إلى الكويت للحصول على فيزا سياحية لتصحيح وضعه القانوني في الولايات المتحدة، كانت إقامته كطالب قد انتهت شهرَ ديسمبر ٢٠٢٠، مع أنه عاش وارتاد المدرسة في الولايات المتحدة منذ كان سنه ثلاثة عشر عامًا. كتب يزن للسفارة الأمريكية في الكويت وشرح وضعه ووضع والده المريض، الذي يخضع للعلاج

وزودهم بكل الوثائق اللازمة. بقينا شفيق وأنا فترة ما يقارب الشهرين وحدنا في شقتنا في واشنطن. المكان الوحيد الدائم الذي كنا نذهب إليه هو المستشفى.

كنت أحاول استكشاف بعض المطاعم المحيطة بالبناية التي نقطنها واكتشفت أنه يوجد الكثير منها حولنا ولكننا لم نمتلك الفرصة للبحث عنها. جائحة الكورونا منعت هذا كله، ناهيك عن أن أغلب هذه المطاعم أقفلت أثناء الجائحة وهكذا وبعد العودة من المستشفى كنت أضعف وأخضع لطلب شفيق وابتزازه العاطفي لي فآخذه إلى بعضها وخاصة عندما كنت أشفق عليه من قلة الأكل.

كانت قد بدأت حمى الانتخابات الأمريكية نهاية العام ٢٠٢٠، والنكات السياسية التي ترافقت مع حملة الرئيس دونالد ترامب. تزامن هذا كله كذلك مع حمى الكورونا. بعد العشاء، الوجبة الرئيسية، كان وقتنا يتوزع على التسلية بالبرامج الحوارية والأخبار، وبعد ذلك وعندما تسنح الفرصة كنا نشاهد الأفلام العديدة، وحدنا، مع يزن أثناء تواجده معنا والذي عاد حال تم إعطاؤه فيزا الدخول السياحية لأمريكا، وزينة التي بقيت معنا أغلب الوقت كذلك. ثم إننا وددنا شفيق وأنا أن نعيد حضور مسلسل «التغريبة الفلسطينية» مع يزن وزينة وخاصة بعد تطور قضية حي الشيخ جراح ولم يسعفنا الوقت لمشاهدة أكثر من حلقتين. وقد شاهدنا معًا العديد من الأفلام، بعضها هادف والبعض الآخر من أفلام المغامرات التي هي ما يفضله شفيق ويزن وزينة، والأقل طبعًا الكوميدي والرومانسي المفضل لي أنا، ناهيك عن الأفلام الوثائقية أو التاريخية.

شهر فبراير ٢٠٢١ أراد شفيق أن نتجمع جميعا كأسرة في واشنطن. قدمت ابنتي حنين من الكويت دخل شفيق للمرة الأخيرة مستشفى جورج تاون بعد أن انتهت ابنتي حنين من حجر الأسبوع الأول. قضيت هذا الأسبوع عندما كان شفيق في المستشفى أحاول أن أطبخ له أي شيء ليأكله فهو لا يستسيغ أكل المستشفى ولكن أكله كان يتناقص شيئًا فشيئًا. وفي أجواء الكورونا لم نذهب إلى أي مكان سوى الشقة والمستشفى، لم نفعل أي

شيء سوى الأكل ومشاهدة التلفاز. أكل شفيق اليومي وخاصة الوجبة الرئيسية كان المعضلة الشائكة لنا. ما عساه يأكل، ما عساه يستسيغ!

هذه المرة اتضح وأثناء مكوث شفيق في المستشفى، أنه يعاني من التهاب في الرئة، مكث في المشفى لفترة أسبوع كامل. في ليلة العاشر من مارس ٢٠٢١ حوالي الساعة السادسة والنصف مساء وبطريق عودتي للبيت من مستشفى جورج تاون بعد أن أخذت العشاء لشفيق، جلبت ما كان يود أن أغسله له وفي طريق العودة إلى الشقة وأنا أقود سيارتي، إذا بي أمام غزال صغير تضربه السيارة التي أمامي. أوقفت سيارتي وإذا بسيدتين لاتينيتين يتعاونان في حمل الغزال وينقلانه من منتصف الشارع إلى الرصيف. كان الغزال يصيح كالإنسان ويحاول الاندفاع إلى الأمام ولكنه لا يقوى على ذلك فالجزء الخلفي من جسمه كان مكسورًا وملتصقًا بالأرض وهو لا يقوى على سحبه فيئن من الوجع.

نزلت من سيارتي وعرضت مساعدتي ثم انضمت إلينا سيدة أخرى كانت تمارس رياضة الجري واتضح لي من الحديث معها أنها طبيبة في نفس المستشفى الذي يعالج فيه شفيق. أرادت نقالًا لتتصل بجمعية مختصة بعلاج الحيوانات فهي لا تحمل نقالًا أثناء الجري. أعطيتها تلفوني دون سؤال لتتصل بالجمعية المسؤولة عن إنقاذ ورعاية الحيوانات المصابة. ظللت أنتظر حتى قدمت سيارة الجمعية المختصة ثم غادرت وبعد عدة أيام طلبت من زينة أن تتصل بالجمعية وتسأل عن الغزال الصغير. أخبرتني فيما بعد أن الغزال لم تكتب له الحياة! أصابني إحساس غريب عندما علمت بأن الغزال الصغير فقد حياته.

الباب الرابع: التخطيط للعودة

في يناير ٢٠٢١ سأل الطبيب شفيق: «سأسألك سؤالًا قاسيًا ولكن يجب أن أسأله: أتود أن تموت هنا أم في الكويت؟».

كان شفيق يجلس على الكرسي على يميني وأمامنا الطبيب. أحسست أن طاسة رأسي قفزت إلى السقف العالي ولم أتفوه بحرف، بل لم أنظر إلى أي اتجاه. بقيت أحدق إلى اللامكان، في الفضاء.

«في الكويت». أجاب شفيق.

أردف طبيبه: «أنا أسأل لأنني أعرف أن خطوط الطيران لن تقبل أن تقلك بهذا الوزن المنخفض، ناهيك عن أنك لا يمكنك تحمل طول الرحلة، لذا سنطلب لك تغذية وريدية Total Parenteral Nutrition TPN وستتعلم زوجتك وضعه لك يوميًّا، يحب أن نزيد من وزنك».

بدأت أتمرن على إعطاء شفيق الغذاء الوريدي ليليًّا. بدأنا يوم الخامس والعشرين من يناير بما يعادل ١٨٠٠ سعر يوميًّا لنساعده على اكتساب الوزن إلى أن وصلنا إلى ١٢٠٠ سعر حراري يوميًّا إضافة للأكل الطبيعي. تحسن وضع شفيق ووزنه وأكله حتى أنه بدأ يسحب حقيبته إلى عيادة الدكتور مشيًا على القدم وتوقف عن استخدام الكرسي المتحرك ريثما أركن سيارتي وأنضم إليه. مؤشر السرطان بدأ ينخفض، مع أنه لا يعني الكثير وحده ولكننا سعدنا بتحسن حاله، ما زودنا بالأمل.

يوم الخامس عشر من يناير وبعد جلسة المستشفى جلبت له أكلًا يابانيًّا كان قد استدل عليه عبر الإنترنت. كان لا زال يطلب الأكل ولكنه كان يأكل كميات قليلة جدًّا. بدأ شفيق يعود تدريجيًّا إلى بعض نشاطاته ومقابلاته. بدأ يتحدث مع الآخرين الكثيرين. ما لا يعرفه

الآخرون أنه في كل مرة كان يتحدث مع صديق، أو قريب، أو طالب أو زميل كان يغفو بعدها لساعات عديدة من الإنهاك الذي يصيبه. في هذه الزيارة قال الطبيب لشفيق: «اعذرني، أنا لا أحاول التخلص منك، ولكن أي علاج سنتبعه من الآن متوفر في الكويت. لقد زرت الكويت وأعرف بلدك جيدًا، مستشفياتكم لا ينقصها شيء وأطباؤكم أكفاء كذلك، وليس لدينا هنا ما هو غير متوفر عندكم!» هل كان الطبيب محقًّا؟ هل كان من الثقة بالوضع الطبي بشأن علاج السرطان بحيث كان يحفزنا على العودة! هذه الأسئلة لا أزال أتساءل بشأنها ولكني لو كنت أعرف ما أعرفه الآن، ما كنت تحركت أو تركت بيتي، أهلي وأقاربي، رفاقي وأولادي. ما كنت تركت الكويت وما فيها.

ظللت وشفيق نكمل اتصالاتنا للاستشارة الإضافية مع عدة مستشفيات، مثل: بوسطن، فلوريدا، ميريلاند وتكساس. ثم إننا أكملنا الاستشارات الإضافية مع العديد من الأطباء المتخصصين بالطب التكميلي والبديل في الولايات المتحدة وغيرها. ديننا وثقافتنا تجعلنا نؤمن بقدرة الله وباللامعلوم. لا شك كذلك في أننا نمتلك الأمل الذي يجعلنا نتحرك إلى آخر لحظة وحتى إلى ما بعد الآخر. لا تعارض هنا مع العلم ولكن الإيمان بالله وقدراته العديدة يجب أن يكون كبيرًا ما يشكل حافزًا لنا على العمل المستمر رغم الصعاب. يحاول الطب التكميلي أن يُبقي على الأمل ويحفز المريض نحو محاولة قلب الوضع ومقاومة المرض وحتى مواصلة البحث في نواحٍ عديدة لا يؤمن بها أو يقوم بها الطب التقليدي الحديث. استمررنا في الغذاء الوريدي آملين وكالعادة أن فيه الخلاص، أي نعم تحسن وزنه، تحسنت شهيته للأكل وبدأ يمشي إلى العيادة عندما أنزله أمام المستشفى وأذهب لأركن السيارة، كما أن مؤشرات السرطان كانت مستمرة في التدني. ارتفعت آمالنا ولكن هذا الارتفاع كان حذرًا. لن أخوض في تفاصيل العلاج الوريدي والتهاب الناقل الذي تعرض له شفيق في أثناء ذلك، ثم تدريبي لأعطيه المضاد الحيوي في الناقل. هذه تفاصيل بدأت تصبح جزءًا لا يتجزأ من حياتنا.

أعدنا متابعة الاتصال مع فرنسا ومع عدة مستشفيات كنا بدأنا بها وكذلك مع ألمانيا. ظروف الجائحة جعلت الحركة والسفر صعبًا جدًّا ولكننا وعند حلول الوقت لكل استشارة

طبية كنا نتعلق بحبال الأمل دون أن يخبر أحدنا الآخر. هكذا وعندما طلبنا استشارة مع مستشفى جونز هوبكنز Johns Hopkins القريب منا لم يعطونا الموعد قبل حلول شهر مايو، كنت في كل مرة أتعجب فهذا مرض خبيث ويتمدد بين اليوم والآخر، فكيف يعطوننا موعد الاستشارة بعد شهر أو شهرين؟ هل لأنهم يصدرون الحكم بالموت حسب نموذجهم أو مسطرتهم الطبية الخاصة؟ الاستشارة الأخيرة كانت ستحسم قضية إما العملية وإما العودة إلى الكويت.

أخبرني يزن أنه يجب أن يرجع إلى الكويت مع الصيف فهو يجب أن يبدأ بالبحث عن وظيفة. لقد أمضى قرب العام بعد تخرجه معنا. كنت خائفة من احتمال حدوث أي شيء لشفيق وأنا وحدي معه، ناهيك عن مشقة السفر معه وحدي. بإلحاح منا جميعًا، مني ومن يزن وزينة أن يخبر شفيق مستشفى جونز هوبكنز أن هذه الاستشارة ستحسم قضية عودتنا، وافقوا وأعطونا موعدًا قبل عدة أيام أي آخر شهر مايو. لا عملية!

الباب الخامس: العودة إلى الديار: الكويت أخيرًا

كانت آخر زيارة لنا إلى مستشفى جورج تاون وإلى طبيب شفيق يوم الثالث من يونيو ٢٠٢١. كان شفيق، قلقًا، متخوفًا ومكتئبًا لا يدري كيف يفكر، ولكن حبال الأمل معه ومعي بقيت إلى النهاية.

سأل شفيق الطبيب: «كم لديَّ من الوقت في اعتقادك؟».

أجاب الطبيب: «لقد مررت بالكثير في هذا العام ولكنك كنت سابقًا لتوقعاتنا، من الصعب أن أخبرك ولكن جسمك سيخبرك».

طلب مني شفيق أن آخذه إلى المجمع التجاري ليشتري بعض الحاجيات منه. قدته إلى المجمع وإلى المتجرين اللذين يحبهما، كان يمشي ويتكئ على العصا. كنت أنزله أمام المتجر ليجلس على المقعد أمامه ريثما أركن السيارة. وعندما أعود أراه دخل المتجر بنفسه، كان لا يزال يحاول. بدأت ألحظ تغير طباعه الشرائية. لم يستهوِه نحوله عندما كان يدخل غرفة القياس اشترى بعض القطع والتي لا تزال معلقة، لم يمهله الموت ولا الزمن من لبسها. بشكل عام بدا لأول مرة مقلًّا في الشراء وهو تاريخيًّا يحب الشراء ويحب أن يتفنن في أناقته.

لم أستطع التخلص من كل ما في شقة واشنطن في الوقت المناسب، فأجواء الجائحة غيرت كل شيء ومن الصعب بيع المستعمل كما كان. سمحت لأخي لأول مرة بالمجيء من الولاية القريبة فأنا مغادرة. خلصني من كل ما كنت أود التخلص منه وأخذها إلى المسجد القريب منه حيث هناك من يحتاجهم. أما شفيق فذهب لتوديع سفير الكويت في واشنطن. حجزنا له باقي اليوم في الفندق المقابل للشقة ريثما نفرغ من التجهيز للسفر تلك الليلة.

وفي الساعة الخامسة اتصلت بصديقتي باكيةً، وقلت لها: «أنا لا أقوى على الانتهاء من حزم الأمتعة، يجب أن نتوجه إلى المطار خلال عدة ساعات ولكني لا أقوى على ذلك». كان الاتفاق معها وزوجها أن يقلانا إلى المطار. قدمت صديقتي وبدأت بتولي زمام الأمور. انتهينا من كل شيء واتجهنا إلى المطار. أكان الإرهاق، الضغط النفسي أم الإحساس الداخلي غير الإرادي بالقرب من النهاية! هل كنت أرفض العودة لا إراديا! لا أدري ما أصابني.

استقلينا الطائرة للكويت. طوال الطريق لم يتناول شفيق شيئًا، لم يشرب أو يأكل. لم يمسك بحاسوبه الشخصي، لم يكتب أو يقرأ. كانت هذه عاداته أثناء السفر. لطالما أحب السفر والأكل أثناء السفر ولكن ليس هذه المرة. طباعه كانت تتغير بالدقيقة. حاولت ويزن أن نجلب وننوِّع في الكثير له ليأكله ولكنه كان يرفض. كان شفيق متعبًا ومنهكًا جدًّا، ناهيك عن أنه أحس أن هذا يعني قرب أجله. وضع كمامته وقبعته التي أنزلها على وجهه. طلبنا كرسيًّا متحركًا في كل محطة من رحلتنا. كان يعلم، فهو يقرأ ويبحث فيم حدث لكل من كابد هذا المرض اللعين الذي يذيب الإنسان تدريجيًّا كالشمع. هذا المرض الذي يوصل الإنسان إلى مرحلة الزهد الكامل في الحياة وما يتعلق بها. ولكن الأمل والإيمان بقيا مع كلينا للآخر، كان لا يزال يحدوه الأمل، أنا كذلك. حقيقة أنني وعندما أنظر إلى الخلف أرى أني كنت في حال إنكار لما كان يحدث وهو ما جعلني أستمر حتى إلى ما بعد الآخر! كان ذلك نعمة من نعم الله. قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

وصلنا إلى الكويت أخيرًا بعد رحلة طويلة جدًّا ليلة التاسع من يونيو ٢٠٢١، عانينا جميعًا من العناء والتعب ولكن شفيق كان أكثر تعبًا وإرهاقًا. لم يتفوه بشيء، كان مطأطئًا رأسه، يلبس القبعة والكمامة اللتين كانتا تخفيان وجهه كي لا يتعرف عليه أحد وهو الذي كان يُسرُّ بمعرفة الآخرين له وينجذب إليهم كالمغناطيس. تخبرني صديقتي أروى بملاحظتها عن شفيق ساعة الوصول وكم كان متعبًا وكيف أنه أخبرها أنه لا يعتقد أنه سيسافر بعد هذه

المرة. عندما وصلنا البيت ناولني جواز سفره وطلب أن أضعه حيث لا أحد يستطع الوصول له قائلا: «لا حاجة إليه، لن أسافر بعد الآن».

تحسن شفيق في الكويت، بدأ يختبر طلبيات المطاعم المغايرة لأمريكا. كان آملًا أن يحب الأكل أكثر من الولايات المتحدة ولطالما أخبرنا أنه سيطلب كذا وكذا عند الوصول. ولفترة عدة أسابيع كان يطلب المشويات الشرقية من أماكن مختلفة. لم يعد يحب أن يأكل من طبخ البيوت. أخته الصغرى «لبنى» أرسلت إليه بعض الأطباق التي يحبها عادة ولكنه لم يخبرها أنه لم يأكلها، كان يحب أن يجامل. كنت أود أن يأكل أي شيء فأنا لا أريده أن يعود إلى الوزن السابق وتسارع نبضات قلبه. كنت أتمزق بين أن أدعه يأكل كل شيء، أي شيء، وأن أحافظ على إعطائه فقط ما هو عضوي وخالٍ من السكر وخالٍ من كل ما ينصح به الطب التكميلي. ابتعت كل ما يمكن أن يجعل الأجواء نظيفة وخالية من التلوث، منقيات هواء، قلاية هوائية، فرنًا هوائيًا، وهكذا دواليك.

بدأنا نحث شفيق على التمارين الرياضية، التي هي عشقه أصلًا. بدأ يقوم بالسباحة في مسبح البيت الذي لطالما مازحني بشأنه قائلًا: «قمتي تغريد ببناء مسبح على طولك وحجمك فقط»! لكن هذا المسبح أصبح الآن مناسبًا، ولأول مرة هو يراه بمنظور آخر. عندما كان شفيق يسبح ولأنه مولع باستقلاليته وعدم تحكم الآخرين فيه كنت أتظاهر أنني تركته، لكني كنت أرقبه من خلف النافذة فقط دون أن يلاحظني أو يلاحظ خوفي عليه.

يوم أول اثنين الرابع عشر من شهر يونيو ٢٠٢١ وبعد وصولنا إلى الكويت كان موعدنا مع الطبيب المختص والذي وضعناه على اتصال مع طبيبه بالولايات المتحدة عندما قررنا الرجوع إلى الكويت. جرَّاحه الأول الذي كان من المفروض أن يجري له عملية استئصال المعدة في الولايات المتحدة نصح به. هذا الجراح والذي يعمل في واحدة من أشهر المستشفيات في العالم كويتي د. و. ر. ابن صديقة وزميلة لي في جامعة الكويت. كنت أعرفه صغيرًا ولكني لم أعرفه جراحًا إلا عندما ذهبنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. هو أكبر مثل لهجرة الأدمغة العربية، والتي هي من مشاكل العالم العربي المُلِّحة.

في أول لقاء لنا مع طبيب شفيق الكويتي بالكويت د. ج. ب. تفاجأت وشفيق بسرور أنه كان حاضر الذهن، متابعًا لحالة شفيق، قارئًا كل تقاريره، ومتابعًا لآخر تطورات هذا المرض ولحالة شفيق. لو كنت أعرف ذلك لما وجدت مبررًا واحدًا لترك بيتي ومحيطي وأجوائي سوى العملية التي ذهبنا لأجلها. كذلك تفاجأت لأنني وجدت الطواقم الطبية مؤهلة. أحب شفيق طبيبه ووثق به وهو كان بحاجة إلى ذلك في هذا الوقت الحرج من مرضه.

وضع الطبيب شفيق في اتصال حالي مع طبيبة مختصة بالألم والأدوية وأخبره أنها ستنضم إلى شفيق يوم العلاج الكيماوي القادم الذي سيكون مزيجًا من الكيماوي والبيولوجي. كنا بدأنا هذا العلاج في الولايات المتحدة وقد لاءم شفيق أو على الأقل بدا لنا ذلك، أي أن هذا العلاج كان نفس ما تلقاه شفيق في واشنطن. تم الاتفاق بين الطبيبين على الاستمرار في هذا العلاج بالولايات المتحدة وهو ما سنكمله وباتفاق الطبيبين بالكويت. كان يفترض أن يخضع شفيق لجلستين، أي شهر كامل من العلاج الكيماوي والبيولوجي بالكويت في الرابع عشر من يونيو والخامس من يوليو. طبيبة الألم كانت قد طلبت منه ألا يأخذ أحد الأدوية القاسية على المعدة وخاصة أنه ومنذ جلطة الرئة الأولى تم وضعه على إبر مسيل دم يومية. أوقف شفيق هذا الدواء وخاصة أنه مع المسيل يشكل خطورة عليه. أي أن الدواءين معًا لا يجب أن يتلازما.

الجلسة الثانية اكتشفنا أن الناقل Port مقفل وكان لا بد أن يتم فحصه بالسونار والتأكد من سلامته. تركنا المستشفى ذلك اليوم بعد الساعة السادسة مساء وكان لا بد من أن يخضع شفيق لإجراء تصويري علاجي اسمه التصوير التلفزيوني في اليوم التالي Fluoroscopy. يوم الثامن من يوليو أجرى شفيق الـ CT Scan. كلمت طبيبه وسألت عن النتيجة وأخبرني أن السرطان يبدو تحت السيطرة وأنه لا يرى أي سبب لتغيير خطة العلاج.

أعتقد أن طبيبة الألم د. أمينة، ومن البداية تعتقد بأن هذه هي النهاية لكن الإيمان لا يجعلنا نقر بذلك وتحسبًا لأي مفاجآت، لكني، أنا، كنت أقاوم ذلك بشدة حتى أنها كانت تحثني على الاستمتاع بالوقت معه وإراحته قدر المستطاع وأنا أدهش لقولها.

أذكر أنه وفي يوم الاثنين، الواحد والعشرين من يونيو، وبعد جلسة العلاج الكيماوي، كنت أنا منهكة جدًّا من التعب فتوجهت إلى سريري الساعة الثانية عشرة ليلا، قبل شفيق وكالعادة قبل مرضه بالكويت، صحوت في الرابعة صباحًا، مددت يدي وتحسست مكانه ولم أجده في الفراش. قمت أركض في البيت، حافية القدمين، أبحث عنه هلعة مما قد أجد. لكني وجدته يقظًا، يراقب التلفاز، أخبرني أنه جائع فأحضرت له بعض الأكل. عادة تدب فيه الطاقة بعد العلاج، ما كان يحدوني إلى محاولة إطعامه بعد العلاج عادة. حقيقة هناك نظرية صوم المريض قبل العلاج بيومين. لم يؤمن شفيق بذلك وظل يخبرني عن مذيعة تعرَّف إليها، صامت وفقدت حياتها بمرض السرطان.

قررت أن أجلب سريرًا جديدًا لغرفتنا ولكنه مقسوم من المنتصف ومن الأسرَّة المتحركة التي تصعد وتنزل تدريجيًّا كما في المستشفى ولكني ابتعته عبر الإنترنت وكان سيصل خلال فترة بسيطة لا تتعدى الأسبوع. أنا وددت لشفيق ألا يشعر أنه مريض ويمارس عاداته وهواياته بشكل عادي. أردت كما كنا تاريخيًّا، نخطط عند الكبر أن نقرأ في الفراش. وكما فعلنا سابقًا في الولايات المتحدة فإن شفيق لا يجب أن ينام مسطحًا. بالنسبة إليَّ كان هذا هو السبب الرئيسي، وتشاء الأقدار أن يصل السرير أثناء إحدى زياراتنا للمستشفى. تسلمته صانعة البيت ولكني عندما عدت إلى البيت اكتشفت أن الشركة الناقلة جلبت إليَّ فرشتين وإطارًا حديديًّا «مفرد» واحد فقط. باءت كل المحاولات في إيجاد الإطار الثاني بالفشل. اتصلت بالشركة الناقلة والبائعة حتى، وقالو لي إنهم أفلسوا من محاولات إيجاد الإطار الثاني. هل كان لذلك من مغزى! هل هذه إشارة! الله أعلم!

قررت أن أضع الفراش المكتمل حالًا لشفيق، فهو لا يجب أن ينام مسطحًا وهو لا يحب أسرة المستشفيات التقليدية. بدا هذا الخيار ملائمًا جدًّا. وأثناء نقل السرير، وقع إطار الحديد على جبيني وكان قاب قوسين من أن يصيب رأسي أو عيني. أحضرت ابنتي زينة الثلج ووضعته على جبيني. أذكر أني بكيت بحرقة ولكن بصمت، خاصة أني كنت أسمع شفيق ينادي في الخلفية «تغريد!» لكنه لا يقوى على الركض ليسعفني. الألم الذي أحس هو به وألمي من الوجع ومن رؤيته بهذا الضعف لا يزال يؤلمني.

كانت عطلة عيد الأضحى قد بدأت ومعها بدأ شفيق يشكو من أوجاع في معدته. وأخذ يمتنع عن الأكل والشرب. اعتقدنا من الوصف أنه يبدو تقرحًا في المعدة وبدأت أعطيه عصير الصبار ولا أعطيه أي دواء على معدة فارغة. كان يتألم ويئن وأنا أراقبه ولا حيلة لي سوى البحث واستشارة صديقتي التي كانت في وضع انتقال إلى بيتها الجديد بجواري والملاصق لبيتنا. صديقتي لا تستطيع القدوم لأنها ترى الكثير من المرضى وهي تخاف علينا وعلى شفيق خاصة من الكورونا. كلمت طبيبه وأبديت خوفي من التهاب آخر في الناقل الـ Port ثم وفي الليلة الخامسة من بدء بيات صديقتي د. أروى، في بيتها الجديد كلمتها صباحًا وطلبت منها أن تجيء لرؤية شفيق. قدمت بملابس البيت ووجدت أن شفيق قد فقد الكثير من السوائل ويعاني من الجفاف Dehydrated. كلمت الدكتور ج. ب. طبيبه المختص، الذي طلب مني التوجه إلى مستشفى بدرية الأحمد حالًا. ذهبنا إلى المستشفى باستخدام باص عيادة صديقتي د. أروى، وعلى الكرسي المتحرك الكهربائي الذي جلبه شفيق يوم ١٢ يوليو ٢٠٢١. عمال النقل عند أروى حملوا شفيق والكرسي المتحرك معًا.

بقي شفيق في المستشفى سبعة عشر يومًا. اتضح أنه كان يعاني من نزيف حاد بالمعدة، التهاب في ناقل العلاج port والذي كان قد التهب سابقًا في الولايات المتحدة ثم إنه كان يعاني مما يسمى تعفنًا أو تسممًا بالدم Septicemia. عنى ذلك أن هذا النزيف والبكتيريا هما السبب لما كان جسمه يتعرض له من ضعف وأن ذلك قد يقود إلى ما يسمى صدمة إنتانية Septic Shock. كلما نظرت وتمعنت في هذه التجربة هالتني الطريقة الممنهجة التي عالج الطاقم الطبي والتمريضي وضع شفيق بالكويت! أعجبت بالطاقم الطبي الذي عالجه. ليت شفيق كتب له العمر، لكان كتب على الأقل عن تجربته هذه وخاصة هنا في الكويت، ولكن لا اعتراض على حكم الله.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (التوبة: ٥١).

في هذه المرة وبالطبع وكما عودني شفيق كان كمبيوتره الشخصي أول شيء وضعناه في حقيبته. ولكن عمله بدأ يصبح صعبًا. طلب مني عدة مرات أن أرسل إليه بعض الرسائل

الإلكترونية، فهو لا يقوى على الطباعة. ثم إنه لا يقوى على التركيز. حاولت أن أقنعه بمحاولة الانطلاق من المكان الذي وصلنا إليه وعدم النظر إلى الوراء. سألته: «هل أوقفت مقالك الأسبوعي؟» جاوبني بالإيجاب. أذكر أني قلت له وأنا أعرف كم هذا المقال مهم له «لِمَ يا شفيق؟ على الأقل اكتب مرة شهريًّا بدل من أسبوعيًّا إلى أن تتحسن». كنت لا أزال أحلم وأؤمن بتحسن حاله. كل من حولي كانوا غيري. آخر مقال تم نشره لشفيق في صحيفة القدس العربي كان في الثاني والعشرين من يوليو ٢٠٢١ بعنوان «السلطة الفلسطينية بين نيران الاحتلال والإصلاح والمجتمع».

بعد أن أمضينا في المستشفى أكثر من أسبوعين ذهبنا إلى البيت، لكن شفيق بدأ ومنذ أن كنا في المستشفى لا يأكل أو يشرب إلا القليل. كنت ألحظ تلفونه المحمول وهل كان يتابع أصدقاءه وكما تعودنا عليه أم لا. لكن اهتماماته بدأت تتغير وانفصاله عن الدنيا بدأ يزداد وهو لا يقوى على الأكل، الشرب، رؤية الآخرين. إنه لا يقوى على العيش. إنه يود فقط أن ينام ويغضب إذا ما طلبت منه الأكل أو رؤية أحد.

طلب مني أن أوسع في مواقع الكراسي ليتمكن من قيادة كرسيه الإلكتروني المتحرك الذي ساعدته ابنتي حنين على شرائه ومازحني قائلًا: «أريد ممرات آمنة». فعلنا ذلك وأبعدنا بعض الكراسي والمقاعد حتى بدا البيت كالمخزن ولم يهمنا أي شيء. لكن لا أحد كان يعرف ما يجول بخاطره وما يحدث لجسمه إلا هو. ثم إني وأثناء مكوثه بالمستشفى توجهت إلى المعرض الذي جلب منه الكرسي واخترت كرسيًّا خفيفًا لا يتجاوز وزنه السبعة كيلو ووضعته في سيارتي وقلت له: «هذا الكرسي خفيف جدًّا وهو لاستخدامك إذا ما اضطر أيٌّ من الأولاد أو أنا اصطحابك إذا أردت الخروج إلى أي مكان. إنه من الخفة لنستطيع أنا أو البنات حمله بالسيارة». للأسف هذا الكرسي لم نستخدمه ألبتة.

قضينا بهذه المستشفى، مستشفى بدرية الأحمد لمرضى السرطان ما يقرب الثلاثة أسابيع. أجرى شفيق خلالها فحوصات مكثفة، ناهيك عن فترة الستة عشر شهرًا قبلها بالولايات المتحدة وفي كل مرة يهبط قلبي إلى أخمص قدميَّ ونعيش، رحلة الانتظار القاتل. كل مرة

كان عليَّ أن أتأكد أن المريض لا يفكر في المرض وأن أحافظ على معنوياته، لكن هل يعقل ذلك؟ كيف يكون ذلك ونحن أمام مريض تمرَّس على البحث والتنقيب ويعرف أين يجد المعلومات الوفيرة. من الصحيح أنه أتيح لنا فرصة التعرف على إجراءات طبية جديدة تعتبر أحدث ما توصل إليه العلم الحديث، لكن ليتها كانت في ظرف مغاير. كذلك فإن طلب إعادة فحص من الفحوص كان يمزقني، فأنا بين خيار الإعادة والألم المصاحب، الانتظار، القلق وخيار الثقة المطلقة بالإجراء وبالطبيب ثم هناك احتمال المجازفة الوارد ولكن هل من خيار لي؟

بدأ شفيق يستخدم الأكسجين في الفراش وعند استخدام الحمام. طبيبته طلبت منه أن يحاول عدم استخدامه كل الوقت فهو يخلق حالة من الاعتمادية Addictive. لكن شفيق كان يحس بالأمان في استخدامه ويصر على ذلك ويهلع إذا ما نسيه. وقبل أن نترك المستشفى اشتريت له آلة أكسجين ثابتة لغرفة الجلوس ولم نستخدمها ألبتة وواحدة أخرى متنقلة. الآلة المتنقلة كنا نضعها أسفل السرير يمتد أنبوبها إلى فتحتي أنفه. نسيها شفيق عدة مرات أثناء اقتيادي له إلى الحمام وكنت أشير لأبنائي بذلك من خلف ظهري، ما يثبت أنه يستطيع أن يكون بدونها لكنها كانت تعطيه إحساسًا بالأمان.

في كل مرة كنت آخذ شفيق إلى الحمام كنت أطلب منه أن يضع يديه فوق كتفي، كانت طريقتي لحمايته لو حدث أن وقع وذلك ليكون جسدي حاجزًا بينه وبين أي شيء ولكن حمدًا لله لم يحدث ذلك. كان يداعب رقبتي بإبهاميه وأنا أكرر له كما كنت أكرر لأولادي صغارًا: «قطار تشوتشو Chocho Train».

بقينا عدة أيام في البيت ولكن وضع شفيق كان يتردَّى شيئًا فشيئًا. اتصلت بصديقتي د. أروى، مرة أخرى، قدمت وقررت أنه بحاجة إلى أن ينقل إلى المستشفى وبدورها اتصلت بالدكتورة أمينة، طبيبة الألم التي قدمت إلى البيت، رأته وطلبت أن ننقله إلى المستشفى، فهو يعاني من جفاف مرة أخرى. قالت له د. أمينة: «دكتور شفيق سنأخذك إلى المستشفى لعدة أيام نجري فيها الفحوصات اللازمة ونطمئن عليك». اتصلت بطبيبه المعالج د. ج. ب.

يوم التاسع عشر من أغسطس الذي طلب مني أيضًا التوجه إلى المستشفى. طلبت منا د. أمينة، أن نتصل بسيارة الإسعاف. تخبرني صديقتي أروى، أن سائق الإسعاف الكويتي عندما علم من هو المريض أبى إلا أن يحضر بنفسه ليقل شفيق إلى المستشفى: «هذا الرجل خدم البلاد وسأقله بنفسي». لم أكن أعرف ذلك إلا عندما أخبرت أروى، أنه بقي معنا إلى حين وصلنا إلى الغرفة الخاصة بشفيق.

كيف لي أن أوضح للآخرين عدم رغبة شفيق في رؤية أحد، عدم رغبته في الأكل والشرب، بالتواصل مع الآخرين، بالحياة وبكل ما يمت بصلة إليها. عمله، ظهوره على منصات التواصل، كمبيوتره، نقاله، كل ما كان سابقًا متعلقًا به. بدأ شفيق يرفض كل ما يتصل بهذه الحياة. أما أنا فكنت لا أزال في حال من النكران، أنا تعودت أن شفيق يقاوم ويتعافى دائمًا من كل ما يلم به، وهو مداوم وملتزم بفحوصاته ومكملاته الغذائية. هو الإنسان الإلكتروني Bionic الذي سيتعافى، كما كنا نمازحه. أنا سأفعل، أنا سأنقذه، سأتصل بفلان وعلان. كأن ربي كان يخبرني بأنه ورغم كل ما أفعل سيبقى هو أكبر وأقوى مني ومن المرض ومن الجميع، هو كذلك.

أخبرتني طبيبة الألم د. أمينة، أن طبيبه ج. ب. ونتيجة للوهن والضعف الذي تعرض له سيوقف العلاج الكيماوي له وأن جسمه لن يتحمل المزيد من هذا العلاج. الأسوأ من ذلك أنه وبعد هذه المرة لن يدخلوه هذه المستشفى. يجب أن يدخل إما الرعاية الفائقة ICU وإما التلطيفية Palliative. هل يعني ذلك أن الحلول استنفدت؟ كان هذا رأي طبيبه المختص، طبيبة الألم بدأت إخباري بذلك. اغرورقت عيناي، لم أعِ إلا ودموعي تنهمر كالمطر، ما عساي فاعلة؟ وددت لو كان بإمكاني خبط رأسي بالجدار الأبيض علَّه يتكسر وأنهي هذا العذاب ولكني لن أفعل، سأفكر. ها هي صفعة أخرى ولكنه سيتجاوزها، كما تجاوز العديد من الصعاب منذ تزوجته. الدنيا، الصعاب والظروف الصعبة التي مررنا بها وعلى مر السنين علمتني أنه دومًا يفعل ذلك. سنشيخ معًا، فقد وعدني عدة مرات في هذه الحياة.

سئم شفيق من طلبي المتكرر بأن يأكل ويشرب، بأن نحاول جلب المقربين ليروه آملين أنهم غير مخالطين رغم وعدي له أنا وزينة ويزن، مراعاة لرغبته وطلبه المتكرر قبل ترك الولايات المتحدة بأننا لن نسمح بدخول أحد ليراه وهو بهذا الشكل المريض والضعيف. لن يراه أحد غير أشقائه فقط. لكني أريد له أن يكسب العافية، لا أزال غير مصدقة أن ذلك من الاعتيادي للأطباء بشأن هذا المرض.

كان شفيق يوبخني عندما لا أتوقف عن ترجيه ليأكل حتى لو القليل منه، حتى أنه في إحدى المرات تنرفز وقال: «توقفي عن إجباري على الأكل والشرب، خلاص أريد أن أنام، كل ما تفكري فيه الأكل والشرب؟» حزنت عليه وهو لا يقوى على الأكل والشرب، ذرفت دموعي وحدي. كنت أختبئ في زاوية الغرفة لآكل أو أشرب. لا أريده أن يرى ذلك، فهو لا يقوى عليه. هو لا يريد الأكل والشرب ولا رؤية أحد، هو يريد أن ينام فقط وألا يتحرك.

قدم طبيبه المعالج د. ج. ب. يوم الجمعة ليراه وتفاجأت من أنه اتفق مع شفيق على ما كان يقول:

د. ج. ب: «لا تريد أن تأكل؟ لا تأكل. لا تريد أن تشرب؟ لا تشرب. لا تريد رؤية أحد؟ لا ترَ. افعل ما تريد».

كنت في الغرفة، أنا وابنتي زينة التي اتفقت مع رأيي وقتها. أرسلت إلى الطبيب بعدها رسالة مطولة لا أزال أحتفظ بها، لمته وأنبته فيها على اتفاقه مع شفيق على عدم الأكل والشرب ورؤية الآخرين، واعتبرت ذلك تشجيعًا للمريض. شفيق يسعد برؤية الآخرين فكيف نوافق ألَّا يراهم وخاصة المقربين، مثل أشقائه. رد عليَّ طبيبه باختصار مريب أنه سيجتمع معي وأطباؤه يوم العمل القادم ونناقش وضعه.

في ذاك اليوم المقرر التقينا في غرفة اجتماع محاذية لغرفة شفيق. أذكر أن دموعي كانت تقبع في عيني ثم تنهمر، ولا أقوى على إيقافها كانت تندفع دون إذن أو إنذار وأنا أحس بها على خدي فقط رغم المحاولات العاتية. كان الطبيب يقول لي:

«الموضوع لا علاقة له بما يأكل أو يشرب، الموضوع ليس من يرى أو لا يرى. الموضوع ليس أي منا، لا أنت أو أنا أو أي أحد، إنه هو البطل ومن حقه أن يخط قصته كما يشاء».

في اليوم التالي أثناء زيارة كل من د. ج. ب. وطبيبة علاج الألم د. أمينة، طلب شفيق أن يعطوه جدولًا للأدوية. كان وظل يحاول أن يعيد التحكم في تفاصيل يومه. وافق الأطباء وطلبوا منه أن يخط ذلك بنفسه. أنا فعلت ذلك أيضًا. حاول جاهدًا أن يركز ويخط ثم وبعد برهة نظر إليَّ وقال لهم: «تغريد كتبتهم!» معطيًا الورقة لي. نظر الطبيبان إلى الورقة التي كان شفيق يحاول أن يخط جدوله عليها. هذه الورقة استدلَّا منها علي عدم قدرته على التركيز والكتابة، حالة الإنهاك بلغت ذروتها.

في هذه المرة، في مستشفى بدرية الأحمد الملاصق لمستشفى حسين مكي جمعة للسرطان بالكويت، أخذ شفيق معه كمبيوتره الشخصي وهاتفه النقال، لكن الكمبيوتر بقي على طاولة الأكل بمحاذاته ولم يفتحه. النقال كان كذلك مغلقًا أغلب الوقت. المرة الأولى بالكاد استعمله، المرة الثانية أخرجه من حقيبته ولم يستخدمه.

بقينا في نفس المستشفى، بدرية الأحمد، لخمسة أيام متتالية وبعدها عدنا إلى البيت. تحيرت فيما يمكن أن أفعل لشفيق. كنت لا أزال أنتظر أن يتحسن وأتفنن بانتقاء الأكل والشرب له، بانتقاء منقيات الهواء، الأجراس التي تمكِّنه من استدعائي في ثوانٍ وقتما شاء وأينما كنت في البيت، وكأني كنت ألهِّي نفسي بهذه التفاصيل الصغيرة، الدقيقة. طلبت من صديقتي أروى أن نتصل بطبيبه الأول الذي شخَّصه قبل أن نتوجه إلى الولايات المتحدة د. ج. ع. أردت التباحث معه بشأن إجراءٍ لوضع أنبوب الغذاء لشفيق عبر المعدة مباشرة. الغذاء الوريدي في الولايات المتحدة حسَّن وضعه، لكني لم أجد في الكويت غذاء وريديًّا للكبار ولا أدري لماذا إلى الآن! الغذاء الوريدي TPN أنقذه في الولايات المتحدة، حالما يتحسن وضع وزنه تبدأ دقات قلبه المتسارعة بالتناقص. لذا بدا لي ذلك خيارًا جد منطقي. جاء د. ج. ع. إلى البيت وتباحث معنا في هذا الأمر ثم غادر على أن يخبرني في اليوم التالي النتيجة وهل يستطيع أن يقوم بهذا الإجراء أم لا. تخبرني صديقتي د. أروى، فيما

بعد أن مرضى سرطان الجهاز الهضمي يصلون إلى مرحلة لا تتقبل معدهم الأكل ولا تهضمه أصلًا. هل هذا ما كان يحدث مع شفيق؟

ثم إنني اتصلت بواحد من أعز أصدقاء شفيق ت. ب. وطلبت منه أن يحضر إلى البيت ليراه ويرفع معنوياته. تركته معه لعشر دقائق ثم فوجئت بعدها بمغادرة صديقه الذي أخبرني أنه سيعود مجددًا مع صديق آخر ن. ق. وقال لي: «إن شفيق يعرف كل ما يمر به، لقد بحث وقرأ وهو يعلم كل شيء».

بعد أن غادر صديق شفيق، نظر شفيق إليَّ نظرة حانية كأنه يعي ما أفعل وقال: «تغريد! أرجوك لا تستخدمي أصدقائي معي». أنا أعرف أنه يراني لا حيلة لي، وفي نفس الوقت أحاول جاهدة! ولكن ما عساي فاعلة! إلهي بماذا أجيبه.

أنا كنت أعتقد من البداية في العنصر النفسي بالموضوع، ولكنه كان يرى أنه في نهاية الطريق. لطالما أخبرني: «أتذكري عندما أخبرني طبيب الولايات المتحدة: «جسمك سيخبرك». جسمي يخبرني الآن أني في نهاية الطريق». كنت أصارع تصديق ذلك، أنكره، أعارضه بشدة وأستمر. هل هذا هو الأمل؟ هل هذا هو النكران؟

حنين، ابنتنا الكبيرة، قالت لي إن والدها عندما كان بمستشفى بدرية الأحمد، أول مرة، أوصاها بإخوتها ودموعه تقبع في عينيه. وتخبرني زينة أنها قبل وفاته بأسبوعين كانت تجلس على سريره تحدثه، وضعت رأسها على كتفه وأخبرته بأسفها لما يحدث.

أما يزن وهو أصغر أولادي، فعندما قدم إلى الكويت، ديسمبر ٢٠٢٠، وقبل أن يغادر إلى الولايات المتحدة أوصاه والده أن يكون الأخ الكبير لأخواته رغم أنه الأصغر. الدنيا سرقت شفيق منا ومن نفسه وكأنه وفي آخر شهوره أراد أن يفعل ما لم يتمكن منه أو ما بقي يؤجله. قبل الذهاب إلى مركز العناية التلطيفية ذاك الصباح وهو ما يزال على فراشه وعدته عِدَّة وعود وطلبت منه ألا يقلق على الأولاد فلقد عمل كل ما يمكن وقد جاء دورهم الآن. إنه قدرهم من الآن.

بحث وكتب وصوَّر وشارك زوجي د. شفيق ناظم الغبرا، بالحد الأقصى إلى آخر لحظة مكنته قدراته من ذلك. أطلق «أبجديات القضية الفلسطينية» وهي حلقات من كَدِّه وتعبه، أعدَّها وقدمها بنفسه تشرح المحطات الرئيسية في القضية الفلسطينية ضمن سلسلة «سفير فلسطين» على اليوتيوب والمبنية على محاضراته في مقرر «القضية الفلسطينية» الذي درسه لعدة عقود في جامعة الكويت. عندما كنا في الولايات المتحدة خرج إلى النور كتاب له في ٢٠٢١ من نشر دار صوفيا في الكويت «دراسات نظرية في العلوم الاجتماعية». عمل على ترجمة سيرته «حياة غير آمنة» إلى اللغة الإنجليزية. ظل يطل عبر محطات التلفاز المختلفة ووسائل التواصل الاجتماعي العديدة. ظهر له آخر مقال صحفي من كتابته يوم الثاني والعشرين من يوليو ٢٠٢١ في صحيفة القدس العربي بعنوان: «السلطة الفلسطينية بين نيران الاحتلال والإصلاح والمجتمع». أحب شفيق وطنه الكويت كما أحب جذوره الفلسطينية. لم يتخلَ عن أيٍّ منهما. عندما توفي الشيخ صباح الأحمد، رحمة الله عليه، شارك شفيق برأيه وتحليلاته، رغم المرض بشتى الوسائل. وكلما تكلم كان للكويت وفلسطين دور بالنسبة إليه.

أخبرت أروى أن وضع شفيق لا يعجبني وأنه يحتاج إلى الغذاء والفيتامينات ليقوي جسمه. أخذناه إلى غرفة ملاحظة في عيادتها وأجرت أشعة مصورة Xray ورجوتها أن تعطيه إبرة فيتامين. كنت أكرر: «الطب يساعد الناس على الشفاء وليس على الموت، ساعدوه، ساعديه!» دنياي غير دنيا أروى، الطبيبة. الدنيا عندها وعندي، غير دنيا شفيق.

ذرفتُ الدموع عندما أخبرتني أروى أن طبيبة الألم د. أمينة، تعتقد أنه يجب أن يذهب إلى مركز العناية التلطيفية. كنت أعرف إلى حدٍّ ما أن هذه نهاية الطريق ولكني لا أقوى على تصديق ذلك. قدمت د. أمينة، بناء على طلب شفيق الذي رجاها وأروى، أن تقنعاني بأن يذهب إلى مستشفى العناية التلطيفية. عندما انضممت إليهم في غرفة الملاحظة حيث كان ينام، نظر إليَّ موقنًا أني كنت أبكي، وقال: «سأذهب فقط إذا رضيت تغريد».

ذلك اليوم اتصلت بكل من أعرف أنهم عانوا هذه المعاناة أو كانوا برفقة من عانى مثله. كنت أتخبط لا أدري ما عساي فاعلة. ذهبنا إلى البيت بعد أن اتفقت أروى مع طبيبته أن نذهب في اليوم التالي قبل الظهر إلى مركز العناية التلطيفية. ولكني كنت لا أزال متأملة في معجزة للآخر، لذا رجوته أن يبقى في البيت: «سأحوِّل البيت إلى مستشفى إذا لزم الأمر. لن أسمح بأن تغادر البيت، ستبقى بيننا وفي بيتك إلى آخر لحظة».

الصباح التالي طلب مني أن أعد له بيضة مسلوقة Poached. كانت هذه مساومتي معه كي لا أعطيه بيضًا مسلوقًا قليلًا لأني كنت أخاف من كل ما هو غير مطبوخ. يا للعجب أكلها كلها، هل أكلها غصبًا عنه ليفرحني أنه أكل؟ ثم إنه طلب مني أن أستدعي ابننا يزن ليحلق له. وهو ما حدث أيضًا، ثم طلبت منه أن يقبع تحت الدش لتجري المياه وتنظف الشعر الذي حلقه له يزن ورضي. لم يعارض أبدًا، لكنه لم يتحمل حتى تدفق المياه وطلب مني إيقافها فورًا. الألم كان يعتصره لكنه كان يعاني في صمت مطبق. ساعدته أن يجفف جسمه ويلبس. خرج من البيت وانتابني إحساس غريب حال خروجه بأنه لن يعود إلى هذا البيت الذي أحبه. اتجهنا بسيارتي، حسب طلبه، إلى مركز العناية التلطيفية، صديقتي أروى، رافقتنا.

قبل ذلك وكلما كنت أطلب منه شيئًا مثل الحلاقة، التغيير، رؤية أحد أو أي شيء، كان يجيبني: «غدًا، غدًا». بالنسبة إليه، كأن غدًا لن يكون، لن يحضر. كنت أمازحه قائلة: «غدًا، غدًا، هذه مقولة الكسالى، هكذا تعلمنا صغارًا». كان يعد نفسه وكأنه أخذ موعدًا مع الموت. وضع أمامه ثلاثة منبهات وكان لا يفتأ يسأل: «كم الساعة؟» كنت أمازحه قائلة: «لا عليك من أي شيء، فقط نَمْ واسترح، هل عندك موعد مع أحد؟».

كنت أسأله طوال الوقت: «هل حلمت بأحد، هل رأيت أو ترى أحدًا؟ أخبِرني». لم أرد أن يحضر أي من الأموات أو الملائكة لأخذه كما نعتقد. كأني وددت حتى التدخل هنا، فأنا لا أريد له أن يذهب. وكأنه كان يعي ما أفعل. في كل مرة كان ينظر إليَّ نظرة تهكمية ويبتسم دون أن يجيب.

عندما وصلنا إلى مركز العناية التلطيفية ظهيرة يوم الأحد التاسع والعشرين من أغسطس ٢٠٢١ كانت طبيبة الألم د. أمينة، في انتظارنا. أكدت لي أن هذه الغرفة كغرفة الفندق ونستطيع أن نذهب إلى البيت في عطلة نهاية الأسبوع عندما يتحسن، فمعنا مفتاح الغرفة لنعود إليها، ولكنهم هنا وفي هذا المكان مؤهلون للتعامل معه ومع الطوارئ. هل كانت تدري وتسايرني؟ أنا لا أدري إلى الآن. كنت أعد نفسي لذلك حقيقة. توسط شفيق السرير، نظر إليَّ عبر الغرفة الواسعة قائلًا: «شكرًا تغريد». نظرت إليه متسائلة: «نعم؟» كرر: «شكرًا».

قلت له: «سنعود إلى البيت فور أن نقضي على هذا الالتهاب وتتحسن». كنت مصدقة ما أقول فعلًا.

خرجت للتحدث مع الطبيب المناوب والممرضين وعندما عدت أخبرني أنه لن يترك السرير حتى ولو إلى الحمام. نظرت إليه قائلة: «ألا تعتقد أنه من الأفضل أن نساعدك ولو إلى الحمام، لقد كنا نفعل ذلك في البيت». نظر إليَّ وقال: «في كل مرة كنت أذهب في البيت إلى الحمام كنت أحس أني أصعد جبل إفرست». صمتت، كنت أتمزق ولا أزال عندما أذكر! كان شفيق يكابر جدًّا في المرحلة الأولى من العلاج ولكن مع تقدم المرض والإحساس بقرب النهاية لم يعد يهتم إلا بالراحة. لا يأكل، لا يشرب، ولا يريد أن يرى أحدًا أو يراه أحد. يريد النوم فقط، كيف نوصل ذلك للآخرين المحبين الذين يودون أن يكونوا بالقرب منه.

في هذه المرة وفي مركز العناية التلطيفية Palliative Care Center الملاصق لمستشفى حسين مكي جمعة، ومستشفى بدرية الأحمد للسرطان بالكويت، أخذ شفيق معه كمبيوتره الشخصي وهاتفه النقال، لكنه لم يخرج الكمبيوتر من الحقيبة أو يفتح النقال. المرة الأولى بالكاد استعمله، المرة الثانية أخرجه من حقيبته ولم يستخدمه. المرة الثالثة لم يخرجه ألبتة وأعطاني نقاله ومحفظته في اليوم الثاني قائلًا: «ضعيهما في مكان آمن». قلت: «احتفظ بالنقال قد تحتاجه». ولكنه أبى قائلًا: «خليه معك، لا أحتاجه».

لم أترك شفيق طوال ليالي بقائه في المستشفى بالكويت في الثلاث مرات. كنت أنام على أريكة أمامه، أصحو في كل مرة يدخل الممرضون أو يتغيرون، ثم إني وخاصة في المرة

الأولى، كنت أجلس مع الأطباء كل صباح لأخبرهم عن تجاوبه مع الدواء وخاصة المسكنات. كأننا كنا نقرر معًا التخفيف أو الإضافة حسب ملاحظاتي ومن البقاء طوال الليل. كنت أذهب يوميًا إلى البيت لأغتسل، أصلي وأدعو ربي وأحضر أي نواقص لي أو له. كان بإمكان أحد الأبناء جلب أي شيء لي ولكني أعتقد أن هذه كانت طريقتي في التنفيس عن نفسي. كنت أكلم والدتي، صديقتي د. أروى، وأي أحد آخر من أخواتي أو أخوات شفيق إذا استطعت وأسعفني الوقت والإنهاك والمزاج.

يوم الثلاثاء، الواحد والثلاثون من أغسطس، كان عيد ميلاد شفيق. سألته زينة ما إذا كان يرغب في كعكة معينة لكنه قال: «لا». هو لا يقوى على الأكل أصلًا. ثم سمح لها أن تجلب كعكة من خبزها بالبيت وفعلت. طلبت منه أن نستدعي أشقائه لكنه أبى، وقال: «دعيهم يأتوا اليوم التالي». فعلت ذلك. حاول أن يتذوق الكعكة التي جلبتها ابنتي زينة ولم يستطع لأنه خاف من الاختناق. لكنه أبى إلا أن يبتسم وطلب أن نأخذ صورة جماعية لنا كعائلة. كانت أروى أوصتني ألا أدعه يأكل أو يشرب شيئًا، هي تعرف وضع رئتيه. ثم إني في اليوم التالي اتصلت بإحدى شقيقاته «لبنى» التي كانت وعدتني بجلب بعض العصائر والقهوة، وقلت لها كم أنا خائفة عليه من الاختناق. كنت أسأله: «شفيق، أنت غير عطشان؟» ويجيبني: «عطشان ولكني خائف من الاختناق». هذا الكلام لا زال يعذبني كلما تذكرته.

وفي اليوم الكبير، صباح يوم السبت الرابع من سبتمبر ٢٠٢١ لم ينم شفيق جيدًا تلك الليلة. كان نفسه ثقيلًا والبلغم في رئتيه يتزايد. ظللت أقفز إلى جانبه كلما حاول النهوض. كان ينظر إليَّ مبتسمًا لأنني بجانبه. وفي كل مرة كان يحاول أن يخبرني شيئًا كنت أضع أذني بقرب فمه محاولة أن أفهم ما يقول ولكني كنت لا أستطيع، فيرمي بيديه الاثنتين وكأنه استسلم، وهكذا ولعدة مرات حتى أتى الصباح. كنت أعطيه كيسًا أبيض يتم استخدامه عادة للاستفراغ ليبصق البلغم فيه، ما يجعلني أرى لون البلغم. كانت صديقتي أروى قد أخبرتني أن لون البلغم الغامق ليس جيدًا. كنت ألحظ ذلك مع شفيق منتظرة الصباح لأخبرها. كان لون البلغم يزداد غمقًا.

في هذا الصباح لمست تعبه وعناءه. لا أدري ما حدا بي أن أقول له وأنا أضع يدي على ذراعه: «شفيق! مهما فعلت بالدنيا، أنا أسامحك. مهما فعلت أنا كذلك سامحني». لطالما كانت أختي تردد على أهمية التسامح المتبادل لروح المريض قبل أن تذهب إلى بارئها.

صدق علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، حين قال:

النَفسُ تَبكي عَلى الدُنيا وَقَد عَلِمَت

أنَّ السَلامَةَ فيها تَركُ ما فيها

لا دارَ لِلمَرءِ بَعدَ المَوتِ يَسكُنُها

إلّا الَّتي كانَ قَبلَ المَوتِ بانيها

في الصباح جاء ممرض اسمه أ. مع مناوبة الثامنة فأخبرته أنه لم ينم الليلة الفائتة وأنه تعب جدًّا. كان ينادي شفيق «عمي» جلب ماكينة الأشعة وأخذوا صورة لرئته ثم قام بسحب البلغم عبر أنابيب خاصة عدة مرات، أخبر شفيق أنه سيريحه ثم أعطاه دواء منومًا. جحظت عينا شفيق ونظر إلى السقف. خفت وسألت الممرض أ.: «ما هذا؟ ولمَ عيناه جاحظتان ومعلقتان بالسقف؟».

أجابني: «لا تخافي، أعطيته منومًا وإذا كنتِ منزعجة من عينيه فسأغلقهما حالًا». وضع يديه على جفني شفيق فأغلقهما بسهولة وقال: «ها هو نائم، لا تخافي».

وجدت في نوم شفيق فرصة لأقوم بالحج اليومي إلى البيت، ولكني سأذهب اليوم أبكر من العادة ودون أن يتسلم مني أيٌّ من أبنائي المناوبة بالبقاء مع والدهم. أشرفت على تنظيف الغرفة، طلبت من عمال النظافة أن يغيروا أكياس علب القمامة وألا يقتربوا من الغرفة أثناء

غيابي. مررت على مركز الممرضين القريب جدًّا من الغرفة وطلبت منهم عدم إزعاج شفيق فهو لم ينم جيدًا الليلة الماضية.

ركبت سيارتي وانطلقت تجاه البيت الذي يبعد قرابة نصف الساعة عن المستشفى. كلمت والدتي وانتحبتُ وأخبرتُها كم كانت هذه الليلة الفائتة صعبة عليه وعليَّ. وصلت البيت، أخبرت صديقتي وجارتي د. أروى بقدومي، أردفتْ: «انتظريني، سأذهب معك اليوم، سأنام معك الليلة». هي في دنيا غير دنياي أنا، يبدو أن الجميع في دنيا غير دنياي.

فرغت من طقوسي اليومية بسرعة وقررت العودة إلى المستشفى. اتصلت بأروى فأردفت مستغربة: «لا أزال في ملابس البيت، انتظريني ربع ساعة فقط». أبيت وقلت لها: «تعالي مع زينة». لكني رأيت زينة تركض وبوجه مبيض، لا لون له، وقالت: «ماما، اجلبي خالتي أروى معك، فأنا ذاهبة إلى المستشفى».

ركبنا السيارة، أروى وأنا. كان الوقت قارب الثالثة عصرًا. هي كانت تبعث برسائل عبر تلفونها وأخبرتني أن ذلك كان مع مرضاها. وصلنا المستشفى لنجد شفيق محدقًا إلى الفراغ إلى اللامكان، إلى السقف ويتنفس بصعوبة. أولادي وإخوته كانوا في المستشفى حوله ولم أدرِ أو أكترث لما قد يكون حدث، كنت أود فقط مساعدته، مع أني هلعة. كان لا يزال في وعيه، بقي متوقدًا حاد الذهن إلى آخر لحظة.

كنت أروح جيئة وذهابًا أتحدث مع الأطباء المناوبين. كانت عينا شفيق تلاحقني حتى أن ابنتي زينة طلبت مني عدة مرات أن أبقى إلى جانبه فهو يتتبعني بعينيه. رمى بأنبوب الأكسجين من أنفيه، لا أذكر من وضعه له ثانية لكنه رماه للمرة الثانية كذلك. قررت أروى الاتصال بطبيبته المختصة بالألم د. أمينة، لتحضر كي تعطيه دواء وريديًّا يريحه، قالت له: «شفيق، أتسمعني؟» هز رأسه بالإيجاب. أردفت: «أغمض عينيك». لكنه لم يغمض، كررت ذلك عدة مرات. كررت زينة ما قالته لي سابقًا: «ماما هو يريدك إلى جانبه ويتتبعك بعينيه، ابقي إلى جانبه». ثم إن شقيقة شفيق الكبرى «سحر» طلبت مني نفس الشيء. كما جلست شقيقته الصغيرة «لبنى» تقرأ القرآن له. حاولت شقيقتاه الذهاب إلى البيت والعودة ولكني

وبكل ثقة قلت لهما: «لا داعي إلى العودة الليلة، الصباح رباح». تخبرني د. أروى صديقتي وجارتي وأختي فيما بعد أنها طلبت منهما البقاء، كانت تعرف ما بصدد الحدوث.

اقتربت من شفيق وضعت يدي اليمنى على ذراعه اليمنى أدلكها له بخفة متناهية، ثم وضعت إبهامي بين عينيه فهو اعتاد أن يقوس حاجبيه ويفكر مليًّا. وبحركة دائرية قلت له: «شفيق توقف عن التفكير والمحاتاة (الحنق). توقف عن القلق. أنت فعلت كل ما عليك. نحن كلنا هنا، نحن نحبك جميعًا. أغلق عينيك واسترح إذا وددت ذلك». فما كان منه إلا أن أغلق عينيه وذهب إلى موعده. هل كان ينتظرني أن أقول ذلك؟ هل كانت صدفة؟ هذا ما حدث.

قالت أروى: «ذهب». ثم أردفت: «انتظروا».

بعد ما يقارب دقيقتين أو ثلاث، لفظ شفيق نفسه الأخير، أخذ شهيقًا عميقًا ولفظه بين يديَّ وأمام أعيننا. ذهب ولم يعد.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾. (ق: ١٦ - ٢٢).

الباب الأخير: تأملات

أثناء هذه الرحلة المضنية ومنذ اللحظات الأولى التي تم تشخيص شفيق بها بسرطان الجهاز الهضمي، تعلمت ما لم أنوِ تعلمه. اعتزلت العالم كله وبدأت رحلة البحث والقراءة عمَّا هو جديد وحديث في عالم السرطان عامة، والجهاز الهضمي خاصة. كنت أركز بحثي في الحالات التي شفيت، ولكن شفيق كان يبحث بين الحالات التي انتهت بالموت، فهو أراد أن يعرف ما يحدث له. شفيق الفدائي الذي لفظ حياة الرفاه عندما كان شابًّا، لفظ كل شيء أثناء مرضه كذلك، هو فدائي زهد في الدنيا تاريخيًّا، وها هو يعيد الزهد في الحياة وكل ما فيها ثانية. في هذا درس عميق لمن يتمعن في هذه التجربة.

ما هي علتنا؟

لم يتوانَ الأطباء في الكويت عن فعل أي شيء لتسهيل الإجراءات لنا للخروج لغرض العملية. في خلال ثلاثة أسابيع كنا على الطائرة في طريقنا إلى واشنطن، العاصمة الأمريكية. إضافة إلى ذلك فإن الطبيب الكويتي الذي يمثل كل الفخر للكويت، وما تبذله البلاد من جهد وما تتكلفه لتهيئة أبنائها عظيم جدًّا، ولكن كيف نتركهم لتستفيد منهم الحكومات الأخرى، الإنسانية والعالم ما هذا إلا تفريغ للكويت والعالم العربي من الأدمغة والمواهب التي يمكن أن نستفيد نحن منها ونحن بأمس الحاجة إلى ذلك. النظام البيروقراطي الذي خلقناه يفشلنا يوميًّا ونحن سهلنا المهمة لذلك. هل هناك من برهان أننا خلقنا أنقص من باقي البشر أم أن هذا فشل للنظام الذي يمكن أن يستفيد من عقول تم إحباطها فقررت أن تهجر وتهاجر. أين نحن من الإنجاز؟ أين نحن من الفشل؟ وأين الفساد من هذا كله؟ نحن نعد شبابنا ونبتعثهم لأفضل الجامعات ونشحذ هممهم وما حباهم الله به من مواهب وعلم ومنجزات ثم نطلق سراحهم في الدنيا الواسعة. هكذا هم الأطباء العرب المنجزون الذين يمثلون ظاهرة هجرة الأدمغة خير تمثيل. لم لا تستطيع بلادنا التمسك بهم، ووضعهم في الأماكن التي يستحقونها وأن نستفيد من مواهبهم ومنجزاتهم.

ما لا نعلم!

إن حكم الإعدام صادر علينا جميعًا ومن لحظة الولادة، ولكننا لا نعرف متى تكون النهاية لأيٍّ منا. نحن يجب فعلًا أن نعيش بشعار: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا». تعلمت هذا الدرس عمليًّا وشخصيًّا ودفعت ثمنه باهظًا. أن يقال للشخص: أنت ميت. مباشرة، فذلك في رأيي قمة القسوة مهما كان السبب. أين علم النفس من هذا كله، أين النفسية الإيجابية ودورها في إحداث الفرق؟ ناهيك عن الإيمان بالله وبالقدر وبأن العمر بيد الله فقط. ما أروع هذا الإحساس الذي يعطي الأمل في الحياة والعمل من أجل العيش لها إلى آخر رمق عند الإنسان. ما كان الألم إلا كان الأمل بجواره، ولولا هذا الأمل لكنا متنا مع أول ألم نحس به.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الملك: ٢٦).

من هنا تكمن أهمية وجود طبيب نفسي عالي التأهيل ومتمرس للتعامل مع حالات علاج المرضى عامة، والأمراض التي تنتهي بالموت كالسرطان، وذلك لشحذ همة المريض وإعطائه الأمل في الحياة والتفاؤل بما قد يكون بانتظار المريض، فيصبح شعار العمل لليوم هو للأبد وللآخرة، وكما أن الموت أقرب من حبل الوريد فعلًا، فلا شك أن الصلاة والتأمل تخفف الكثير عن الإنسان ولكن وجود طبيب نفسي يجب أن يكون جزءًا لا يتجزأ من العلاج.

الأقارب الذين نختارهم!

الأصدقاء والأحباب هم الأهل الذين نختارهم وليس من تختارهم الحياة لنا. هم لا يخلقون معنا بل نحن نختار علاقتنا معهم، وإذا كنا محظوظين فإننا سنستمتع بكليهما فيكون القريب هو الصديق كذلك والعكس صحيح. صديقتي، أختي ورفيقتي الدكتورة أروى، التي لم تفارقني في هذه الرحلة المضنية، وفي فترة مكوثي في الولايات المتحدة كانت تتواصل معي بشكل شبه يومي، نقيِّم، نتحدث ونوازن الخيارات أمامنا. كل استشارة

أجريناها، شفيق وأنا، أخبرناها عنها. كل خيار اتخذته وعلاج أخذه شفيق كانت معنا للتقييم والتحدث بشأنه وشأن الآثار الجانبية له وعلى شفيق. كنت أتحدث معها وأنقل إليه رأيها وأي رأي آخر، خاصة عندما كان لا يقوى على الحديث. ما يميزها أنها طبيبة قلب وباطنية ناجحة، وأنها درست وخبرت العلاج التكاملي وكل ما هو جديد ومكمل، ما يؤهلها للتحدث بشأنه، أي أنها فعلًا تمسك بالعصا من المنتصف. في بعض الأحيان كنا نستكشف بعض الطرائق ونقيِّمها معًا.

السلام الداخلي: خيار أم إجبار؟

في أثناء هذه التجربة وفي مرات عديدة كنت أتمزق بين خيار عدم إخبار المقربين أو إخبارهم، بناءً على طلب شفيق المريض حتى لا يثقل بالأسئلة والاستفسارات. علمني ذلك معنى الصبر ومعنى إنكار الذات حرفيًّا. فالمريض الذي تتذبذب رغباته وأمزجته كان يمعن في الطلبات التي كانت تبدو لي غير منطقية ولكنها تبدو له منطقية جدًّا. أوصلني ذلك إلى مرحلة من الإنهاك والإرهاق من الطلبات، المكالمات والتمنيات والسؤال، حتى ما عدت أكترث إلا لسلامي الداخلي. كأني كنت أحتفظ بنفسي لعلاج زوجي المريض فقط، غير آبهة بأي شيء آخر أو أي أحد.

التكنولوجيا الحديثة!

مسهلات التكنولوجيا الحديثة وعمليتها رافقتنا في هذه الرحلة المضنية، الطلب والشراء عبر الإنترنت، إجراء الإجتماعات والاستشارات والتحدث عبر الإنترنت والعديد من وسائل التواصل الاجتماعي، مشاهدة الأفلام، متابعة الأخبار، متابعة الأقرباء، الأهل والأصدقاء. أما الإحساس الدائم بأن هذا الوضع القسري، وضع السرطان والكورونا، مؤقت فكان يخبو شيئًا فشيئًا. بعد الشهور الأولى من مرض شفيق بدأ الإحساس بطول المدة يلوح. أولًا، مع الكورونا يبدو الانتقال صعبًا بل مستحيلًا في حالتنا. ثانيًا، كل ما كنت أقاوم جلبه ليسهل حياتي بدأت أطلبه: مواعين، أدوات مطبخ عديدة، بعضها مميز ومريح والبعض الآخر لا.

النهاية بدت جدا بعيدة، لذا كنت أقول لنفسي: «قد آخذه معي للكويت». لأسهل حياتي وأمضي. كنت أعيش لليوم ولجعله سهلًا ومحتملا قدر المستطاع.

التنفيس وتطهير الداخل!

قضيت وقتًا بنَّاءً مع: التنظيف، الطبخ، التعقيم والسجن قسريًّا جراء ما فرضه علينا المرض والجائحة واختياريًّا جراء قراري بالبقاء وحدي دون الانخراط أو الاختلاط بأحد. التأمُّل والتصبُّر كانا سلاحي الذي ساعدني على الاستمرار. ورغم أن الممارسات الجديدة تضع عبئًا على الشخص فإنها تريح. اضطررت مثلًا إلى تعلم طلب مونة البيت وأغراضه «أون لاين» ورغم مشاكل الطلب التي تتطلب دقة متناهية عند انتقائها مثل الخضر والفواكه وتقييمها يدويًّا وفعليًّا ثم إعادة التقييم إذا كانت هناك مشكلة على الموقع كي لا تتكرر، فعندما ينتقيها ويتحسسها الشخص بيده وبنفسه، يكون الوضع مختلفًا. كذلك هناك مقاومة الإحساس بالطلب المكلِّف والكثير والذي لا نحس به إلا عندما نرى ما طلبنا واقعًا من كمية ونوعية. حتى أنه إذا لم يعجبنا، هناك إجراء معين يجب اتباعه للطلب «أون لاين». كل هذه الممارسات الجديدة كان يجب أن أتعلمها. عادات جديدة فرضت علينا ويجب الإذعان لها مجتمعيًّا وعالميًّا.

مشاهدة الأفلام مع الأبناء متى ما استطعنا كانت ممارسة شبه يومية فرضت علينا كذلك، ولكننا كنا ننتقي وننوع في خيار الأفلام بعناية ما بين الترفيهية، التعليمية والتثقيفية. كنا ننوع بين الأفلام الترفيهية بكلتي اللغتين العربية والإنجليزية لنعطي الأولاد جرعة من كليهما. كان هذا فهمًا متبادلًا بيني وبين شفيق عندما كان أولادنا صغارًا ولكنه كان فهمًا مشتركًا كأن شفيق أحبَّ له أن يستمر ولكن الحياة لم تمهله فكان يحاول أن يقتنص الفرصة حيثما لم تسنح له لذلك. مثلًا شاهدنا فيلمًا توثيقيًّا وهوليووديًّا عن حياة إدوارد سنودين، ثم جوليان أسانج. كنا نجعل يزن وزينة يختاران الأفلام والبرامج التي سنحضرها ليلًا أغلب الوقت وبالتناوب بعد العشاء اليومي، مثلًا:

.The Time that Remains, Little Drummer Girl, The incindiaries

أما البرنامج اليومي للناقد الساخر القادم من جنوب إفريقيا ترفر نواه، فكان بعد الأخبار اليومية زادَنا الدائم. شاع اسم وفعل حاكم نيويورك أندرو كومو، أثناء الجائحة كذلك، ثم كان هناك أيضًا أخبار الكويت عامة وبيتي خاصة من خلال الكاميرات التي أحمل تطبيقاتها على نقالي، ما يجعلني أطمئن ولو عن بعدٍ على البيت ومَن متواجدٌ ومن لا. هكذا استخدمنا التكنولوجيا الحديثة وما أدراك ما التكنولوجيا.

الممارسات المستجدة!

أما قضية التباعد الاجتماعي المفروض على الجميع بعد الجائحة والعيش في شقة صغيرة غير ما نحن متعودون عليه في الكويت، ناهيك عن الاعتماد على الذات كلية وخاصة عندما كنت أوازن وضع شفيق الصحي جراء السرطان ثم الكورونا. جعلني كل ذلك لا أجرؤ على الاقتراب من أحد وتراني أسحب شفيق بتؤدة من يديه كلما اقترب من أحد وهو الذي ينسى نفسه دائمًا وينجذب تجاه الآخرين. أذكر مرة أن جاء معنا يزن لمشيتنا اليومية عندما كان بإمكان شفيق المشي حتى لو لعدة دقائق، ما جعل يزن لا يكررها من خوفه على انجذاب والده إلى الآخرين حتى أنه ظل يردد: «كنت ستعانق الناس في الشارع، لا يمكنك ذلك، الكورونا منتشرة وأنت مريض سرطان كذلك، مناعتك منخفضة، لن أكرر المشي معكما ثانية».

النسبية، المفهوم المنسي!

الحديث اليومي والليلي بيني وبين شفيق كان يتشعب عن مرضه، نشاطه، قدرته على الاستمرار بنفس الدرجة من النشاط السابق. كنت أكرر له أن الأمور نسبية وليست «إما أو لا»، فهو يمكن أن يكتب بوتيرة أقل، فمثلًا بدلًا من مقال أسبوعي، مقال شهري. في كل مرة كان ينظر إليَّ نظرة حانية ومتهكمة كأنه يعرف ما لا أعرف. قبل النوم كنت أدلك وأمسج له جسمه عندما كنا بالولايات المتحدة. أحاديثنا كانت تتشعب لتصل لرغباته بالمستقبل، حتى العزاء وأين سيكون وكيف. كان ذلك يدفعني إلى الجنون أحيانًا ولكني أستمر معه. ثم إنه كان يوصيني بكل تفصيلة مستقبلية لها علاقة بالأولاد ومستقبلهم، إن تزوجوا وأين

سيسكنون. كأنه كان يود أن يرتب الأمور، وهكذا. لكن عند قدومنا إلى الكويت لم يستمر عمل المساج اليومي له إلا لفترة شهر واحد فقط. بعد أن ترك شفيق مستشفى بدرية الأحمد أول مرة، لم يقوَ على تحمل حتى أقل ضغط وكأنها كانت بداية النهاية له.

باختصار منذ مرض شفيق وتوجهنا إلى الولايات المتحدة كنا نتحدث عن الأخبار اليومية، الأولاد، المستقبل، القراءات وكل ما طلب وما سيطلب وما طلبته أنا وما سأطلب من قراءات وكتب. كان يحثني أن أبدأ باتباع هواياتي التي لم يكن لها مكان في حياتي العملية والأسرية وكأنه والحياة كانا يهيئاني لحياة بدونه كليًّا. أنا تعودت منذ تزوجنا على غيابه الدائم ولكني كنت أعد نفسي لأن نشيخ معًا، ولكن ذلك لن يكون الآن.

قضينا شهرين وحدنا في الولايات المتحدة، في زمن الكورونا، عندما كان يزن مع أختيه في الكويت. كنت أخاف أن يسوء وضعه وأنا وحدي في الغربة. كنت أقوده إلى الفراش ونتحدث حديثنا اليومي الذي يتشعب بين السياسة، الأولاد، الهوايات، الطلبة والتدريس، فلسطين والعالم العربي والعالم كله. بعد أن ينام أو أتركه لينام، أذهب إلى غرفة الجلوس، أبكي وأنتحب وحدي وأتساءل ما عساه يحس ولكني لم أقوَ على سؤاله هذا السؤال بل كنت أحاول تجنبه. كأني كنت أهرب مما لا أريد مجابهته. أخلد إلى الفراش جانب شفيق، أضع رأسي بجوار ذراعه اليمنى، أضع يدي على معدته وذلك حسب نصيحة صديقتي ج. م. وأقرأ آيات من القرآن إلى أن أغفو.

في الصباح أنا معتادة على أن أصحو قبله ومنذ كنا في الكويت. أما في الولايات المتحدة، فترة مرضه فكنت أقلق عندما كان ينام متأخرًا فأذهب على أخمص قدمي وأفتح باب الغرفة بروية وأرقب حركة صدره صعودًا ونزولًا لأطمئن أنه لا زال يتنفس. عندما كنت أشك أقترب منه رويدًا رويدًا فأجده يشير إليَّ بالاقتراب مبتسمًا ويخبرني عن نومه وكيف كانت ليلته، وطبعًا عن العلاج في وقتها وآثاره. الرعب والخوف من حدوث شيء، خاصة، وأنا وحدي كانا يتملكاني. الروتين اليومي والتضرع لله، البكاء وحدي، هذا ما كان سندي.

كنت أتساءل بمن أتصل لو حدث له شيء؟ صديقتي المقربة جدًّا، أخواتي، أخواته، أمي كبيرة السن، بناتي وابني الوحيد!

الخوف من الوحدة ومن حدوث أي شيء مفاجئ كان يقتلني حتى أني كنت أحث يزن باستمرار على العودة سريعًا كي لا يحدث شيء وأنا وحدي: «قد أقفز من الدور الحادي عشر لو حدث شيء لشفيق وأنا وحدي». لذا كنت لا أتوقف عن مراقبته وفي بعض الأحيان وقبل أن أترك سريري حالما أصحو، كنت أضع يدي تحت أنفه حتى أتأكد أنه يتنفس. لن أنسى ما حييت الخوف والهلع الذي عشته هذين الشهرين وأنا وحدي.

ممارسات عديدة متعبة لكن مريحة!

لطالما اتهمت من جميع من يعرفني بأني مهووسة بالتنظيم والتنظيف، فأنا عرفت أهميته أكثر أثناء هذه التجربة التي أدعو ربي ألا يمر بها أحد. أهمية التنظيم والتنظيف وتدبير اليوم بحيث يكون فيه إنتاج غير الطبخ والتنظيف والتعقيم. فمثلًا هناك القراءة اليومية للحفاظ على التوازن، قراءة الروايات التي لطالما حرمت منها نتيجة تركيزي في قراءات تخصصي وعملي. الوضع الآن اختلف ويمكنني القراءة التي أتوق إليها ولكن السرطان له قراءاته وأبحاثه التي لا أعرفها، ويجب أن أتابعها. فوق كل هذا أنا يجب أن أعمل على الأبحاث العديدة التي هي متطلب جامعي لي ولكن دون الإخلال بواجباتي اليومية ومرة ثانية الإحساس المتزايد بالمسؤولية والآن مسؤولية زوجي مريض السرطان. فوق هذا، كان هناك الاستماع اليومي للموسيقي والأغاني التي كان شفيق يعشقها ويزيد صوت التلفزيون فيصبح عاليًا جدًّا. ليته هنا ليرفعه حتى لو سمع كل الحي. ليت الإنسان يعرف ما يخبئ له الزمن!

التنظيف والغسيل، الطبخ، التمريض والبحث وإنكار الذات إلى درجة أنني وعندما كنت أتعب أو أمرض لا أدع أحدًا يحس بي فما عساي أقول أو أشكي ونحن نعالج مريض سرطان. حتى أني عندما كنت أحس بأي ألم، أرتاح أكثر ببذل المزيد من الجهد كي لا أحس به وكي لا أدع أحدًا يحس بي. الوقت ليس لي، الوقت لشفيق ورعايته فقط. معاناته

الدائمة جعلت معاناتي الذاتية أولًا ممتدة منه ومن معاناته، ثم إن إنكار الذات من المهمات المطلوبة لمرافقة المريض بل هي من المتطلبات، ولكن هذا المرافق بحاجة إلى سلام داخلي ليستمرا! هل هذه أحجية؟ كانت لي كذلك.

النظر إلى الأمور بمنظار جديد!

مزاجية المريض تتأرجح وتتغير حسب الأدوية، والعلاقات أكانت قريبة أم صديقة تتأثر بذلك بدورها. من لم يمر بهذه التجربة أو يمتلك الحس المرهف ليتراجع مع أول فرصة فلن يسهل عليه فهم ذلك، أي أن هذا يعني «احترام رغبة المريض» مع أول إشارة. أصدقاؤنا، أنا وشفيق في الولايات المتحدة أرادوا أن يزورونا عندما يسمح الظرف لنا ولهم ولكن أجواء الكورونا لم تسمح بذلك فاكتفوا فقط بالأحاديث عبر النقال طوال الستة عشر شهرًا، من فترة بقائنا في الولايات المتحدة. أخي الذي كان يقطن في الولاية المجاورة ويبعد عني ساعة ونصفًا، أراد القدوم ورؤيتي حتى لو من الشرفة ولكني رفضت حتى إعطاءه عنواني. بعد الرجوع إلى الكويت أراد بعض الأصدقاء المقربين كذلك زيارتنا ولكني كنت خائفة من الجائحة ومن عدم الالتزام بالوعد الذي قطعناه على أنفسنا، أنا والأولاد وتحديدًا من كان معنا في الولايات المتحدة، زينة ويزن. الأصدقاء لم يعتبوا أو يغتابوا وعندما أردتهم قدموا دون عتاب أو كلام أو سؤال. ما يعني ذلك أنني اضطررت إلى الإذعان لرغبة المريض المتذبذبة طوال مرضه.

ما أصعب رؤية زوجي، والد أبنائي ورفيق دربي والمغرم بالقيادة، وبأن يكون على كرسي السائق دائمًا يفقد ذلك رويدًا رويدًا، أي مراقبته يذبل، يذوب ويتلاشى. لقد صبر على كل ما آلمه من وجع، حرمان، فحوصات، إبر، أدوية، مستشفيات إلخ.. أُمنِّي نفسي أن بصبره على مواجع هذا المرض وتطوره غفرانًا له وهو الذي لا يحب الألم أصلًا. أما الإيلام الذي أحس أنا بفقده الأبدي فلا يُضاهى، ناهيك عن مراقبته قبلها وقد يكون في هذا غفرانا لكلينا. فالوحدة، التأمل، الصلاة والأدعية كانت تساعدني على التكيف مع الأوضاع

المختلفة، هل لي في أمل أن أتكيف مع حياتي الجديدة دون التخلي عن نفسي وعن حياتي التي أعرفها! أي كيف لي أن أجعل حياتي الجديدة امتدادًا لحياتي القديمة!

لطالما جلست في حديقة المستشفى أقرأ في كتاب أو أردد بعض الأدعية أو فقط أسهو وأفكر ريثما أنتظر شفيق، عندما كان الطقس ودرجة الحرارة يسمحان بذلك. بعض الأحيان كنت أجري المكالمات الهاتفية حتى يفرغ شفيق من إجراء صحي أو علاجي وعندما لم يسمح المستشفى بدخولي معه. ناهيك عن أن دخول المستشفى في الغربة مختلف كليًّا عنه في الكويت. في الكويت الجميع يتعرف على شفيق ولكن هنا الوضع مختلف ما عدا بعض الذين بدأنا نتردد عليهم أصبحوا يعرفوننا وخاصة شفيق الذي يحدث الجميع. وفي أجواء الكورونا كانت الحركة أصلًا صعبة، ناهيك عن لبس الكمامة الدائم الذي أصبح متطلبًا ولكنه يخفي خلفه تفاصيل الوجه.

المحنة منحة!

بشكل عام إذا كان للشخص أن يعي معنى الصبر فهذه إحدى التجارب التي تعلم الكثير منه. إنها تعلم ما هو الصبر فتصبح المحنة منحة بشكل آخر. عندما يعيش الشخص في وضع لا معروف ولا مفهوم، ولا يمكن عكسه أو تغييره. عندما يكون المريض مهمًّا له، أن يسوق ولا يساق وهناك قوة أكبر منا جميعًا تختار، أي أن الشخص مسير وليس مخيرًا. ما هو إذًا الخيار؟ خيار القراءة؟ خيار البحث المستمر والمستحيل؟ المثابرة لعمل ما لا يمكن لأحد فعله؟ ما هو الخيار فعلًا؟ قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ (هود: ١١).

العلم بالمرض والبقاء في شقة صغيرة منحتنا الوقت القسري للتقارب وخاصة أنه، أي شفيق، كان دائم الترحال. لطالما كنت أعاتبه على عدم الإبطاء في العمل وقضاء المزيد من الوقت معنا وكان يعدني بالإبطاء عندما يشيخ قائلًا: «سأبطئ قسرًا عندما أكبر على كل الأحوال وسأكون موجودًا حتى تملّي مني». الدنيا سرقت شفيق من نفسه ومنا. نهل منه أولادي الكثير عندما كنا في شقتنا بالولايات المتحدة كما لم يكن قبلًا خاصة يزن وزينة.

يزن عبر عن ذلك في المقال الذي كتبه بعد وفاة والده، ففي الشقة الصغيرة التي قضينا بها ما يقرب من العام والنصف بدأنا نكتسب روتينًا يوميًّا، كان الأبناء جزءًا لا يتجزأ منه.

حقيقة أن سرطان شفيق، سرطان الجهاز الهضمي امتد من المعدة إلى المريء قبل أن ينتشر في اتجاه أسفل جسمه. تنبهنا لوجوده عندما استصعب شفيق البلع ما حدا بنا إلى إجراء الفحص وبدء العلاج مع أن العلاج، لم ينتج منه شفاؤه ولكنه زودنا بالقدرة على الاستمتاع بوجوده حولنا حتى لو لفترة. ضحكنا، تحادثنا، تجادلنا وتعالجنا، وجاءت الجائحة لتزيد من هذه الفرصة. كأن الدنيا كانت تشاركنا تجربتنا بحلوها ومرها.

الدنيا بألوان عديدة!

تكشفت لنا في هذه الأوضاع شخصيات، طباع وعادات الأبناء فمنهم من هو رفيق الدرب المساند الموجود ليقدم السند عندما نحتاجه. ولكن هناك رفيق الدرب المعاون الذي لا يتوانى عن المعاونة ولكن يجب أن تطلبها منه، هل هذا لأن الشخص لا يرغب في الإثقال أصلًا! هناك رفيق الدرب الملازم الذي سيبقى الحاضر الغائب يدور حول ما يمكن أن تحتاجه ويبادر ويقترح الأدوار مختلفة، الشخصيات، الطباع كذلك ولكنها كلها تكمل بعضها بعضًا ولا غنى عن أيٍّ منها.

في مرضٍ كهذا، يكتشف المريض أو المرافق له شخصيات، طباع وعادات الأصدقاء والأقرباء كذلك. كل شخص في هذه الحياة يخوض غمار معركته مع العالم، مع الآخرين ومع نفسه. هناك الذين يسألون باستمرار دون انتظار الرد والذين لا يتغيرون فلا تحس بحرج أن تخابرهم وقتما تحتاج إلى ذلك وهناك من ينتظر الرد والاتصال وكأن الدنيا لا تزال دنياهم فقط والذين ينتظرون تسجيل النتيجة في كل حادثة. في وقت كهذا تكتشف شخصيات، طباع وعادات الإخوة والأخوات، الكبير والصغير، الذكر والأنثى، من يمكن أن يفهمك وأنت تحاول أن توازن بين الواجب والمرغوب، ولكن هل هناك من أسئلة وبظرف كهذا؟ هناك اختلاف في الشخصيات وتنوعها، لا بل هناك قبول الشخص المريض بكل أشكاله.

الحاسة السادسة!

يزداد الإحساس بأهمية الحاسة السادسة، الغريزة. يصبح الإيمان بأهمية اتباع الحدس الشخصي حين يحتار ويتردد الفرد مهمًّا. لكن ذلك يكون بعد القراءة المكثفة والبحث والتمحيص ليقتنع الشخص بما هو ليس من تخصصه. حقيقةً إن الغريزة مثل اللغة إن لم تستخدم تنضب وتخبو ويصبح السؤال من هو الطبيب؟ هل يمكن للمريض أن يحل محله؟ تعلمت أن الجواب: «لا». ولكن المريض العليم والمرافق للمريض يمكن أن يقترح ويسأل أسئلة ذكية، يمكن أن يساعد في البت بأمور معينة. التذبذب والتغير اللذان يصيبان عواطف المريض ومزاجه المتغير ناهيك عن التعامل معها والإحساس تارة بالشفقة، تارة بالعطف وأخرى بالحنان والحب، هذا وبحد ذاته قمة الألم للمريض ثم لمرافقه. كيف للمريض أن يقتنع بالعلاج وهو يتأرجح بين عواطف متعددة قد تكون متعارضة، كيف يمكن للمريض أن يقتنع بالعلاج ويكون جزءًا منه. أهذه معضلة؟ نعم ولكنها حقيقية.

موضوع الغريزة والإيمان بها يعكس الثقة بالنفس وبأجسامنا وإعطاء الأجسام الفرصة لقيادتنا وإخبارنا في أي اتجاه نتوجه. مثلًا عندما كان شفيق يطلب لبنًا مع ملح وماء كمشروب صباحي، اتضح أنه بحاجة إلى سوائل ومرطبات ولكن صعوبة البلع جعلته لا يشرب. عندما كان يطلب العصائر كان ينشد الطاقة من سكرها. الجسم نظام متكامل ولكننا، باعتقادي، فقدنا الكثير في خضم التخصصات الدقيقة. لقد قال رسولنا الكريم في أحد أحاديثه: «مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفهم مَثلُ الجسدِ إذا اشتكى منه عضو تَدَاعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهر والحُمَّى».

تصبح مقولة أبقراط أب الطب اليوناني واصفًا ممارسة الطب ذات مغزى: «درهم وقاية خير من قنطار علاج». لطالما عنت لي الكثير كمنهجية وأسلوب حياة ولا أزال أؤمن بها بعد هذه التجربة المريرة. أي استشارة أخذناها وتتبعناها سواء من خلال الطب التقليدي أو التكميلي كانت هذه المقولة ماثلة أمام أعيننا. كل حياتنا كانت كذلك قبل وبعد سرطان شفيق. لكنه، أي السرطان، كان قويًّا، والله أقوى منا ومن السرطان.

الفكاهة والدعابة للتقليل من العبء!

الفكاهة والدعابة كانت أحد الأسلحة التي رافقتنا. مزاج وتقلبات المريض، ناهيك عن الأدوية وآثارها والقدرة على التحمل وأهمية ذلك للجهاز المناعي للمريض ولراعي المريض كذلك. في الحقيقة عندما كنت أدفع الكرسي المتحرك وشفيق يجلس عليه كنا نضحك كثيرًا لشجاعتي ولكن لقدراتي التي هي أقل مما كان يتطلب دفع الكرسي ولكني كنت مثابرة ومصرة ألا يقترب منه أحد خاصة في أجواء الجائحة. لقد كان مسموحًا لشخص واحد بمرافقته إلى المستشفى. أنا لي هذا الحق وأبنائي أعطوني إياه فأنا العالمة بتفاصيل أدويته وتحركاته وخططه كلها. أما القيادة والإشارات والتحدث فكانت تخفف من رتابة الموضوع برمته. قدت شفيق طوال الفترة وبأيام عديدة بشكل يومي، قدت من لا يُقاد ولا يحب أن يُقاد. تعبه جعله يجلس في مقعد المرافق للسائق دائمًا، لم يجادل أو يناقش منذ اليوم الأول، لم يَقُد السيارة ولو لمرة واحدة، سلمني دفة القيادة وهذا ما آلمني بشدة. أعتقد أن إرهاق العلاج الكيماوي أثقله من البداية.

قراءة الصباح

لا تزال قراءاتي الصباحية هي وقودي اليومي. في الصباح يكون رأسي نقيًّا والأفكار متدفقة وهكذا أنا، ساعات الصباح الأولى هي أحسن وقت لأنتج فيه. استمر معي هذا الطقس ولكن تغيرت القراءات في أغلب فترة مرض شفيق. ذات يوم وفي الصباح وأنا مشغولة بقراءاتي كنت أعبئ بعض النماذج لواحدة من الاستشارات العديدة التي أجريناها. كان ذلك في الصباح الباكر عندما كنا أنا وشفيق وحدنا في الولايات المتحدة. فجأة، دوَّى صوت تفجير راعني وجعلني أركض إلى الغرفة حيث ينام شفيق. لم يكن نائمًا رغم أنه كان يتعاطى حبوبًا منومة قوية كي لا يشعر بأي ألم. كانت واحدة من المباني المحاذية لنا والتي أستطيع رؤيتها من النافذة حيث أجلس صباحًا. لم أرَ أو أسمع مثل هذا الصوت منذ كنت في بيروت فكثيرًا ما سمعت وشهدت التفجيرات الإسرائيلية للمباني. جعلني ذلك

الخوف من الصوت والإحساس بالخوف «الممنوع» أهلع وأركض دون حساب لأي شيء آخر حيث ينام شفيق.

الحالة النفسية للمريض وللمرافق

كان الخلاف دائمًا مع شفيق له علاقة بحقيقة التعب الدائم الذي كان يعانيه، والخلاف بين أن أجعله سعيدًا بالتحدث مع الآخرين ودون إحساسه بأن هناك من يتحكم فيه، وهو هاجسه الأكبر منذ تعرفت إليه. ولكن الإنهاك من التحدث مع الآخرين كان يتعبه، دون أن يجعل الطرف الآخر يحس بتعبه. شفيق يستمد طاقته بالتحدث مع الآخرين في نفس الوقت. هو عاش للناس ومات كذلك دون أن يدع أحدًا يحس بمعاناته. أنا وحدي أعرفه حق المعرفة. كنت أمازحه دائمًا قائلة: «أنا أعرف توصيلات أسلاك رأسك». وحدنا نحن من كنا معه نحس به ونفهمه دون أن يبوح بذلك. وكما قال العرب دومًا: «اللبيب بالإشارة يفهم». لذا جاءت عملية الاستمرار بشحن النفس من أجل شحن نفسية المريض، وكل ما دمره العلاج الكيماوي من الأهمية وصاحبتنا إلى النهاية.

أعتقد أن الحديث من البداية بأن أمام شفيق عامين أو ثلاثة إذا ما كان محظوظًا، ناهيك عن سؤاله عن المكان الذي يود أن يموت فيه وضعته في إطار نفسي عاشه بحذافيره. تم تشخيص شفيق يوم الخامس عشر من يناير ٢٠٢٠، قضى نحبه مساء الرابع من سبتمبر ٢٠٢١. هذه الأسئلة والإيماءات المصاحبة لها لا تزال تقض مضجعي كلما فكرت في الموضوع. كنت أصارع لأجعله لا يفكر فيها في كل وقت ولكني أعرف أنه كان يفكر فيها. أنا أعرف ذلك جيدًا وما أحاديثه المتعددة عندما سمحت له صحته وقدراته إلا هروب مما كان ينتظره إلى أن وصل إلى آخر الطريق وما عاد يقوى على المزيد من أي شيء. كان شفيق يبدع باستخدام النسخ الإضافية الداعمة Back up لكل شيء. لطالما مازحته معلقة: «هل لدينا نسخة داعمة عنك؟».

في المرة الأولى عندما دخل شفيق مستشفى بدرية الأحمد بالكويت، مكث فيها سبعة عشر يومًا، أخذ معه كمبيوتره وهاتفه النقال ومحفظته، لكن الكمبيوتر بقي على طاولة الأكل. لم

يقوَ شفيق على إرسال أي شىء ولكنه طلب مساعدتنا، مساعدتي أو أحد الأبناء. في المرة الثانية أخرج الكمبيوتر والنقال من حقيبته ولم يستخدمهما قط. المرة الأخيرة لم يخرجهما وكأنه كان على موعد.

التاريخ يعيد نفسه!

ذهبت مع أولادي لإجراء فحص جين السرطان الوراثي بعد وفاة والدهم. كان ذلك قبل أربعينِ وفاةِ شفيق، وتصادف أن مرت إحدى الطبيبات اللاتي عالجته وفي نفس المكان، حيث كنت أجلب قهوتي والعصير الطازج لشفيق كل صباح. أذهلني المكان الذي عاش فيه شفيق، الذي عشنا فيه، لفترة تقارب الشهرين في الكويت. درت حول نفسي في المكان، لم أستطع الكلام أو النطق، احتبست العبرات في حلقي، ثم بدأت دموعي تنهمر بغزارة ولم أستطع حتى نطق أي حرف.

السرطان اللعين الذي قتل زوجي يحيط بالعائلة من جهة أم وأب شفيق، وحري بالأولاد التنبه والتأكد من أنهم غير معرضين وراثيًا لهذا الجين. مع هذا كله لا بد من أن أذكر أنه يجب أخذ الحيطة بأن العامل الوراثي لا يتجاوز نسبة العشرة في المئة في مرض السرطان ولكن حال وجوده لا بد من التنبه له. طريقة وأسلوب الحياة، الضغط النفسي، الوجهة الإيجابية للحياة، التأمل والروحانية، الطعام، التمارين اليومية، الدعم الدائم للمريض وأسلوب الأكل والتداوي كلها تلعب دورها في تكوين الإنسان صحيًا.

تَمّ

أنا والسرطان(1):

أ. د. شفيق ناظم الغبرا

بلا أعراض، فجأة صعوبة في البلع. لم أخذ ولم اعطي بالأمر. ربما هذا نتاج رشح، أو نتاج تقلص صغير في المرئ. لكن الأمر استمر ثلاثة أشهر، ذكرته امام ابنتي... صادف وجود طبيبة صديقة للعائلة، إذا بالأمر يكبر وتصر الطبيبة على منظار للمعدة.... فكان الاكتشاف.

أن تذهب للطبيب، وأنت غير مقتنع بأنك مريض بشيء، هكذا ولأول مرة في حياتي أخضع لمنظار للمعدة. إذا بالطبيب يخرج نحو زوجتي تغريد: «الوضع غير مطمأن، هناك مخلوق سرطاني قبيح الشكل طوله عدة سنتيمترات في وسط المعدة جهة الأعلى».

عندما صحوت ضحك علي الطبيب قائلا: «لا شيئ، التهابات. شوية حبوب وينتهي كل شيئ». سررت، فهذه هي النتيجة التي أتوقعها لشخص مثلي يمارس الرياضة والسير والسباحة يوميا، يأكل بصورة صحية، يحافظ على وزنه كما يجب. لهذا سمعت ما أنا متوقعه تماما.

أصر الطبيب على فحص سي تي سكان. شعرت شعورا غريبا، إهتمام زائد من قبل زوجتي بي. بعد عشرات السنين من الزواج وعندما تصبح العلاقات هادئة تتساءل: «ما سر الاهتمام الزائد».

قلت لها: «ذاهب للسي تي سكان».

قالت: «سآتي معك».

قلت: «لا داعي أنا دائما أذهب لوحدي».

أصرت وقالت: «ولو معقول! لازم اكون معك».

عندما وصلنا هممت بأن أعطي رقم هاتفي، إذا بها تتدخل وتعطي رقم هاتفها.

قلت لها: «هذا يعقد التواصل».

قالت: «لا بأس».

شعرت بأن أمرا لا أعرف عنه حتى أنها أرادت أن تكون معي في كل خطوات الفحص.

قلت لها: «إجلسي اقرأي في كتابك وأنا سأتي بعد الفحص».

عدنا للمنزل، جاءت د. أروى الشاعر، صديقتنا.

إذا بها تقول لي: «معك سرطان».

قلت لها: «تقصدي التهاب وتقرحات».

قالت: «سرطان».

كانت تلك مفاجأة، لكني استقبلت الخبر بابتسامة.

أردفت صديقتنا: «إنه سرطان المعدة والمرئ أعلى المعدة، وقد كشفناه مبكرا نسبيا. هذه هي المرحلة الثانية».

كانت صدمة كبيرة، لا عوارض لا آلام، مجرد بعض الصعوبات في شرب المياه أو البلع لأن السرطان يسد جزئيا طريق المرئ. نشاطي كان في قمته، الرياضة في أحسن حالاتها. كيف وقع كل هذا وما مصدره! سننتظر العينات من مستشفى مكي جمعة للسرطان في الكويت، وبالفعل عادت مؤكده تشخيص الطبيب.

بطبيعة الحال تبقى تقول لنفسك ما هذا، كيف؟ ولماذا تستمر في ذات الأنشطة بلا هوادة. تعلم بالجامعة حيث العمل كل شئ يتغير فجأة فتبدأ وتغير كل حياتك. أنت الآن مع السرطان، في جسدك مخلوق حي مشوه ينمو في معدتك. الأخطر أن ينمو خارج معدتك، فهو قادر على القضاء عليك. في مفهوم آخر أنت حامل بمرض فتاك، عليك أن تتأكد من مدى عمق هذا الكائن الغريب، البشع الشكل الذي يبدو في المعدة وكأنه أفعى.

في مستشفى مكي جمعة بدأت الإجراءات والأوراق: «سنرسلك للعلاج في الخارج، فهناك طبيب ماهر في الولايات المتحدة وفي العاصمة الأمريكية اسمه وضاح. ستذهب إليه، ليبدأ العلاج». لم تتوقف الأوراق عن الحركة والركض من مكان لآخر، إذا بكل الموافقات تصدر خلال أسبوع. اكتشفت أن الأمر جاد، أوقفت التدريس، بدأت احضر نفسي لسفر طويل. تغيرت حياتي بين ليلة وضحاها.

تبدأ بالتفكير بسرعة. ماذا يجب أن أفعل قبل السفر، ماذا أنجز. تتغير مفاهيم الوقت لديك بسرعة. كنت تعتقد أنك ستعيش لسنوات قادمة وأنه معك الوقت لتنجز كل ما تريد قبل أن تصل لسن الثمانين. هنا بدأت أفكر بماذا يقع لو كان لدي عام أو عامين أو ثلاثة؟ ماذا يجب أن أفعل؟

قادني التفكير لتسجيل حلقات القضية الفلسطينية بالكامل وهي المادة التي أدرسها في جامعة الكويت منذ العام ١٩٨٨. وبالفعل سجلت عشرات الساعات في أيام الانتظار بين التشخيص وبين تجهيزات السفر. بل استمر التسجيل لفترة قبل سفري ببضعة أيام. وماذا أيضا؟ البحث عن ناشر لكتابي حياة غير آمنة بنسخته الانكليزية. لكن الشيء الآخر الذي يجب أن يحدث هو تمضية أوقات غنية وطويلة مع العائلة، هكذا بدأت تطول الجلسات مع أسرتي بدأ بزوجتي تغريد وبناتي حنين وزينة، وحديث دائم مع ابني يزن في الجامعة في واشنطن ثم جلسات مع أخواتي وأخي وعائلاتهم وبل ومزيد من التواصل مع أقرب الأصدقاء. يتغير عالمك بسرعة، تتغير الأولويات، تبحث عن النسمة في الأقرب. باختصار تتغير الدوائر.

كنت ولا زلت من لحظة تشخيصي بسرطان المعدة أتعامل مع الأمر بخفة، أقول بعض النكات عن المرض، لكن كل من حولي تعامل معي برقة كبيرة. كثرت حالات التصوير، أقول لنفسي ربما يتذكروني هكذا، كثرت حالات التوقيف في الشارع خاصة وأن الخبر انتشر في الفضاء السياسي والصحفي. أنا أقول لنفسي ستكون هذه الصورة التي يتذكروني فيها.

لكن يبدو أنني تصالحت مع فكرة الموت بسرعة، فأنا مستعد لأسوء الاحتمالات، دون أن استسلم للمرض. استعد للأسوء أو أقاتل ضد المرض من أجل فرص أفضل. ربما هذه هي طريقتي في التعامل مع وضع صعب. ما هو الأسوأ؟ الموت! لا بأس، هكذا التحق بوالدّي وبكل من أحببت، لا خوف من الموت، لقد ولدنا لنموت. لكن لن أموت إلا واقفا، وقويا، ومكافحا، بل سوف اهزم المرض بقدر المستطاع ومهما اعطيت من وقت سأكون من الشاكرين. هذا الموقف خلق لدي توازن واضح. طالما أنا أتقبل الموت لن يهزمني شيء، وكل مكسب فوق الموت هو انتصار لي ضد المرض.

جاءني اتصال من صديقة من بيروت قائلة: «حاولت الاتصال بزوجتك لم ترد، ها أنا اتصل بك. ماذا بك سمعت أخبار...».

قلت لها: «صديقك حامل بالشهر الثالث، لكن الأطباء محتارين بهذا الحمل، ويقال أنه حمل مشوه وأنه يقضي على صاحبه. حمل انتحاري».

ضحكت، ثم تداركت قائلا: «لا معروف له أب أو أم...» ضحكنا كثيرا. وبما أن صديقتي مسيسه جدًا، قلت لها: «هذا توسعي مثل الصهيونية. ولا تجوز معه الصفقات. يتطلب نمط من المبيدات الحشرية التي ترهقه وتدمره».

منذ الأيام الأولى لاكتشاف السرطان بدأت ابنتي زينة بتحضير كل ما يساعد على خنقه، ممنوع السكر بأنواعه، ممنوع الكثير من الأمور، تناول الكثير من الخضار، الكثير من السلطات وعصائر الخضار والفواكه. لكن الأطباء قالوا: «بنفس الوقت ستحتاج للبروتين لا

تهمل ذلك، سمك ودجاج وبروتين نباتي. ستحتاج كل القوة المطلوبة لمواجهة ما هو قادم. السرطان يحتاج قوة».

بدأت أتذكر: متى كانت أول مرة سمعت بالسرطان! مر شريط بذاكرتي لا يتوقف. صديقة الوالدة زوجة الطبيب المعروف مصطفى عبد التواب التي قضت في السرطان في لندن وأنا في الخامسة، مديرة مدرستي البريطانية التي قضت في السرطان وأنا في السادسة من عمري. تلك أول المرات التي سمعت فيها عن هذا المرض الذي اعتقدت أنه نادر لاكتشف فيما بعد أنه يهاجم الكثير من الناس. جدي توفي به، وكذلك خالتي، عمتي وابنة عمتي. تساءلت هل انضم إليهم! أم أقاومه وأوقفه عند حده. تبين أن الإجابة على السؤال ليست بيدي تماما، فمن الضروري أن يقرر الأطباء مرحلة السرطان فهي التي ستقرر مدى استفحاله ومدى المقدرة على علاجه في الوقت المناسب.

عندما تصاب بهذا المرض، لا تفكر كثيرا، ليتني فحصت قبل، ليتني انتبهت لبعض العلامات، ليتني كشفته أبكر، ليتني وليتني ستحرق أعصابك. عليك أن تتأكد أن عقارب الساعة تشير للحالة الراهنة فتبدأ من اللحظة. ها أنا هنا وعلي أن أجد أفضل علاج وحل للمعضلة الراهنة كما هي الآن وليس كما كانت قبل عام. لهذا الأفضل مع السرطان أخذه كل يوم بيومه، كل لحظة بلحظتها. كل يوم لديك فحص، لديك اجراء، لديك ناضور، أو تصوير مقطعي، تتعامل مع ذلك التصوير والفحص، ولا تفكر في أي مستقبل، تنظر لما سيأتي لك الفحص به من معلومات جديدة وتتعامل معها باحترام وواقعيه. كل معلومة ستقود لأخرى وكل فحص سيعطيك نتائج تصب في التشخيص. مع التشخيص بالسرطان تبدأ تنظر للحياة بصورة أخرى، ربما لا تمتلك كثيرا من الوقت، ماذا تريد أن تفعل، كيف ستقضي أيامك القادمة، كل شئ تغير.

مستشفى جورج تاون

في مستشفى جورج تاون حيث أتلقى العلاج يجتمع بك الأطباء المعنيين. أذهب لمختص العلاج الكيماوي الذي يشرح ماذا سيفعل، وكيف أن الدواء يتغير من فترة لأخرى. لكنه

يعود ويقول: «المرحلة الرابعة قد تعني سنوات من الحياة إلى أن يرفض السرطان التجاوب للعلاج ويتغلب عليه. حينها سيتقدم السرطان. هنا نحن نحاول أن نخفف عليك ونحاول أن نوقف الأعراض أو نخففها قدر المستطاع».

تذهب لأي إجراء في المستشفي، تعبئ الأوراق إلكترونيا، تأخذ الدور، يأتي الدور بعد دقائق، إذا بك في عهدة الإجراء الطبي. تفقد كل حرية وحركة، توقع على أوراق تقول بأنهم يستطيعوا القيام بالاجراء. تغير الملابس، تتعامل معك الممرضة بكل إيجابية، ثم تأتي الممرضة الثانية وتسأل نفس الأسئلة، تجلس في الفرشة.... يأتي مختص البنج، يسألك الأسئلة العديدة عن حالتك الصحية واسمك ويوم ميلادك، ثم يأتي مختص البنج الطبيب الثاني ويسأل نفس الأسئلة. كل هذا! لا مجال للخطأ، نفس الأسئلة تعاد وتعاد:

«هل لديك حساسية، ما هي العمليات السابقة التي قمت بها، هل تأخذ أدوية محددة، هل لدى أي من عائلتك الأمراض التالية...» وهكذا!

كل اجراء أجريته فيه مخدر، فعلا أصبحت معتادا. البنج يأخذني في نوم عميق وكأنه دقائق، ثم أصحوا وإذا الموضوع انتهى. عندما أجريت منظار المعدة صحوت من المخدر وإذا بي أرى ابنتي حنين، لكن ذلك كان محض خيال، كانت الممرضة، لكني تخيلتها ابنتي. كدت أنادي عليها، لكن عندما تحدثت عرفت أنها ليست ابنتي.

بعد لقاؤك مع الطبيب الأساسي والطبيب المساعد يتم نقلك لغرفة أخرى. لكن لا أذكر ذلك، المخدر أنامني حيث أنا وتم نقل سريري للغرفة الثانية لغرفة العمليات. نمت وصحوت، وإذا بالطبيب أمامي، يخبرني ماذا وجد وماذا لم يجد.

عندما أجريت البيت سكان، جراحي قال:

«الوضع أفضل مما اعتقدت، الأخبار الآن أفضل والقلق أقل. كل المعلومات لدى زوجتك وابنك».

راهن الطبيب ان المريض بعد المخدر لا يتذكر هذا اللقاء، لكني فعلا تذكرته بدقة وعندما أعدته عليه ضحك. قلت له: «قد يؤسس ذلك لحالة استثناء في مقاومة هذا المرض».

عندما أجريت البيت سكان قال لي: «لقد شاهدنا سابقا في السي تي سكان نقطتين خارج المعهود. هذه النقاط لابد من دراستها أكثر، إنها تثير عندنا بعض التخوف. قد تكون دخلت في المرحلة الرابعة وهي مرحلة بلا شفاء».

أرد فورا: «جئت بلا أدنى علامات أو آلام وبأحسن حالة، كيف يكون السرطان بالمرحلة الأخيرة!».

قال: «جيد أنك جئت قويا، لكن لا يوجد ما يضمن، المرحلة الرابعة يعني أن السرطان انتشر خارج المنطقة الأساسية. هذا مجرد احتمال سندرسه معك لكنه ليس أكيدا».

معلومات كثيرة، صعبة وحزينة.

بعد أخذ العينات تنتظر وتنتظر، للحظة لا أعرف هل أنا في مرحلة نهائية أم مرحلة وسيطة. العينات ستقرر مصيري وستقول كل شئ عن أيامي المتبقية، فكيف اتعامل مع العينات، أرحب بها، أقبل بحكمها، أم أثور بوجهها وارفض قرارها، كيف سأقاوم... أسئلة تتدفق في رأسي. بنج، فحوصات ابر، مواد كيميائية، اشعه، كل هذا يجعلك أحيانا تشعر بتعب كبير. تذهب للنوم وتغط لساعات طوال. قد تميل للصمت لساعات. قد تميل للسير وحيدا والتأمل في معنى الحياة. فجأة تنقلب حياتك رأسا على عقب. هكذا وباكتشاف صغير لأمر جسيم، يتوقف كل شئ وتبدأ الرحلة.

تحدثت مع تغريد وقلت... «أنتم اذهبوا (أنت ويزن) جهزوا ما تريدوا للشقة الجديدة ورتبوا تفاصيل السيارة في واشنطن، أنا سأجلس الآن واكتب واعمل عملي».

ردت تغريد: «هممممم ومنذ متى لا تحب أن تجلس لوحدك لتكتب، الآن لديك كل الشرعية، وأنا سأقول لك كالعادة طبعا لا تعمل شئ ستصلك كل الأمور لعندك. والله أنت ممتاز، ما

خليت شيء ما عملته حتى السرطان عملته..... لازم كل شي تجربه...».

انفجرت بالضحك... فعلا لدي الشرعية الآن للبقاء والكتابة على مدار الساعة لو أردت. هاهاها ... ألعب كرت السرطان.

اتصل دكتور و. ر ...اعطاني النتائج،،، كلها إيجابية. أنا الآن بين خيارين...أحدهم أفضل...وأحدهم ليس أفضل لكن يمكن العيش معه والتأقلم. كم نتأقلم في فلسفة الحياة.... مع الألم، مع الصعوبة، مع كل شيء.....

تجلس على الفراش، تبدأ بعض الأجهزة بالتحرك باتجاهك، فجأة تبرز ورقة، عليك أن توقعها، هذه ورقة تؤكد سماحي بالاجراء، هل لدي خيار. أوقع على عجالة بينما تكاد الآلات أن تلتهمني بين الدقيقة والأخرى.

نحن لا نعرف الكثير عن مرض السرطان، لكن بمجرد أن تصاب به، تصبح قارئا نهما. تبدأ في البحث عن المرض وأسبابه، تبدأ بالبحث عن علاجه وطرق التعامل معه. لهذا لمن لم يصب لا يعني شيئا أن تسمع أنك في المرحلة الرابعه أو الثالثة أو الأولى أو الثانية. وبينما تعرف أصدقاء أصيبوا بالمرض، تتحدث معهم بصورة طبيعية من منطلق سهولة المرض قبل أن تكتشف عندما تصاب به أنك لو كنت في المرحلة الرابعة فأنت في مرحلة خطرة وأن المرض لن يخرج من جسدك، وأن جسدك ستنخره أنواع العلاج الكيماوي التي تقتل كل شئ لكي تصل للجرثومة السرطانية أو الجراثيم، الخلايا السرطانية المنتشرة في كل مكان.

ويخطىء من يعتقد بأن مرض السرطان لا يخضع لقوانين طبيعية، فمن يهتم بأكل صحي، ولا يدخن ولديه عادات رياضية ولديه قلب وجسد نشط سيواجه المرض بوضع أفضل من الذي أهمل نفسه وصحته. فمن انتبه لما يأكل على الصعيد الغذائي والصحي ليس كالذي أهمل كل ذلك. قوانين الصحة والوقاية تنطبق على الإصابة بالسرطان، فهناك فرق بين أن

تصاب بالمرض بينما لديك مشكلات أخرى في الرئة والقلب والسكري، وبين أن تصاب به وليس لديك أي من المشكلات الأخرى بما فيها الضغط والوزن.

عندما تصاب بالسرطان تبدأ بالبحث عن العلامات القديمة التي ربما كانت بمثابة إنذار لم تستفد منه. كل جسد ينذر صاحبه، لكن سرعة الحياة تجعل بعض هذه الانذارات بلا قيمة. فقد تصاب بآلام في مناطق مختلفة من العظام معتقدا أن هذا من برد أو ذاك من طريقة نوم، وقد تصاب يدك بآلام فتعتقد أن ذلك نوع من آلام مرتبطة بالعصب بسبب كثرة استخدام اليد في الطباعة. قد تصاب بآلام في الكتف بينما الأساس والسبب هو سرطان المعدة فلا تتعامل مع الوضع إلا على أنه عارض مرتبط بنوع المخدة التي تستخدمها. الجسم يثور على صاحبه، ويقدم الإنذار تلو الإنذار ثم يصمت بينما السرطان يستبيح المكان بهدوء وبلا ضجيج. المرحلة الأولى من السرطان هي باستمرار الوضع المحلي حيث ينتشر المرض بالعضو المعني إن كان المعدة أو الرئة، والانتشار هنا يبقى محلي. قد ينتقل المرض للمفاويات المحيطة بذلك العضو أو الجهاز. تلك هي المراحل الأولى الثلاث. لكن المرحلة الرابعة هي التي تحول السرطان نحو الهجوم الشامل للقضاء على الجسد كله. هنا تبرز عملية غزو الجهاز المناعي كاملا والأعضاء كلها. في هذه المرحلة الرابعة تفقد قصة أين بدأ السرطان قيمتها، لأنه سيبدو كأنه بدأ في كل مكان وحول كل جهاز. سرطان المعدة هو النوع الذي يكبر ثم يكبر وينمو في المعدة بلا أي تأثيرات وإنذارات. وما أن يشعر المصاب بآلام، يكون السرطان قد تجاوز المراحل الثلاث وانتقل لبقية الجسم على مراحل. المرحلة الرابعة مكونة من حقبات لكن مجرد الدخول بها يعني أن المرض دخل في قلب العظام والجسد والدم وأنه لن يخرج. لهذا في المرحلة الرابعة تبدأ عملية الاحتواء، ويبقى الصراع لاحتواء المرض قدر المستطاع.

يصعب أن يحدد أو يتوقع المرء مدى المحبة والصداقة التي يأخذها من العائلة، من زوجته، أولاده وبناته، من إخواته، إخوته أو من أصدقاءه المقربين والذين لا يعرفهم إلا عن بعد. يصعب تقدير كم الحب الذي جاءني ممن لم التقيهم في حياتي أو ممن كان لقاءي بهم عابرا. في مرض كهذا تمتزج مشاعر متناقضة. من منا لا يعرف أحدا عانى من السرطان،

ومن منا لا يعرف طبيعة هذا المرض وشكله. ها هو يضربني بقوة، وفي مكان صعب دقيق. ورغم مضي شهر على التشخيص أنا لا أشعر بآلام، لكن الواضح أن كل شئ قادم مع الوقت. رغم تقدم العلم الكبير، إلا أننا لا زلنا بدائيين في علاج هذا المرض. لقد شخصت، لكن التشخيص أخذ وقتا، وهناك أمور لا يقدر العلم عليها، وهناك مسائل بالإمكان علاجها، نعم الحظ يلعب دوره، لكن الاكتشاف المبكر هو الفاصل، التشخيص الصائب هو الفيصل الثاني في السرطان.

دق الهاتف، وإذا به طبيب الكيماوي. مجرد أنه اتصل شعرت فورا بأن نتيجة الفحص الأخير أكدت وجود خلايا سرطانية تسربت لبقية الجسم.

قال لي: «بالفعل لقد تسربت، وهذا يعني أن مرضك أكثر تقدما، لكن الشئ الواضح أنه تقدم لمنطقة واحدة، لم يهاجم كل الجسم، وهو لم ينتشر بجنون، لا نعرف عن سلوكه القادم الكثير، الآن نعرف أنه أنشأ نقطة وخلية في الليمفاويات وهي نقطة خطرة ويجب محاصرتها بسرعة. إن نجحنا في المحاصرة ثم في القضاء عليها سيكون ذلك الأفضل مما يعد الأوضاع لمرحلة سابقة تسمح بعملية ينتج عنها شفاء. لكن ذلك غير واضح الآن. فهذه الخلية قد تقاوم المواد الكيماوية، وقد تتمرد علينا، ولا نعرف سلوكها وردة فعلها. لهذا الفيصل في الشهرين القادمين هو الكيماوي ثم المقدرة على تقدير الموقف ثانية».

انتهت المكالمة الأهم في حياتي منذ مدة طويلة، هذا الكائن سيقرر مصيري، وهذه الخلية السرطانية ستقرر كل شئ، هل أخضع لعملية تودي للشفاء أم ابقى في صراع لا نهاية له مع المرض.

في اليوم الأول للعلاج الكيماوي، أوصى الطبيب أن أخذ فطورا جيدا. طبعا قبل الإجراء تقوم الممرضة بفحصك وتتأكد من وزنك وضغطك وحرارتك. ثم تلتقي الطبيب، تتحدث معه، تفهم وضعك تماما والخطة التي أعدها لك. ثم تؤخذ عينات من دمك للتأكد من أنك في حالة جيدة للعلاج الكيماوي. في هذا اليوم سأحقن بستة أدوية، أربعة منها لتحضيري للكيماوي مثل الكورتيزون ومادة أخرى ضد لعيان النفس (الغثيان) وأخرى لتحضير الجسم

لاستقبال الكيماوي. كلها مواد تؤخذ في الجسم من خلال الوريد. وتأخذ وقتا يتجاوز الساعة ونيف. بعد كل هذا تبدأ عملية الكيماوي التي تستمر عدة ساعات. هذا الكيماوي يختلف عن غيره لأنه يركز على المعدة وعلى تلك النقطة السرطانية البعيدة في الليمفاويات القريبة من الشريان الرئيسي القادم من القلب.

لا أعرف ماذا حصل معي، لكني بقيت كما أنا، مبتسم، ضاحك، امازح الممرضات وأمازح زوجتي تغريد المرافقة التي هلكت معي في كل هذا الوضع الجديد. باختصار في كل هذا الوضع هبط عليّ المزاج المازح والخفيف. أقول لتغريد: «حرب جديدة لي، لم اكتفي بمعارك الماضي في لبنان وجنوبه، وها أنا لم اكتفي بمعارك الفكر المستمرة حول كتبي وأبحاثي، أو حتى بمعركة الغزو والدفاع عن الكويت أو الدفاع عن القضية العربية أو الدفاع عن أفكاري، أنا في معارك دائمة، لا أعرف كيف أهدأ. منذ أن أنصف كتابي «ضرار» النائب العام، بدأت أفكر بمعركة جديدة. وجدتها مع نفسي وبين خلايا جسمي وفي السرطان.

تقول لي زوجتي تغريد: «نعم أنت متطرف وهذا الدليل، حتى في المرض لا يوجد لديك تدرج، مرة واحدة سرطان معدة».

تسألني الممرضة فعلا أن كان لدي سكري أو ضغط أو قلب، أو عشرات الأمراض، الإجابة كلا كلا، أقول للممرضة: «ما معي شئ صحتي ممتازة بس معي سرطان».

تقول زوجتي: «يعني أنت يا سرطان قدمت لأحسن صحة ما في حل وسط».

انتهى اليوم الأول من العلاج الكيماوي، بمفاجئة، شعرت بالقوة وشعرت بأني أفضل كثيرا. أحسست بالطاقة، لم أشعر بردة فعل في جسمي أو أية لعيان، لم أصب بأية تأثيرات جانبية كما حذرت الممرضة التي بقيت حول غرفتي للتأكد من أن كل شئ يسير على ما يرام مع هذا العلاج. لكن المفاجأة أنني وفي صباح ذلك اليوم سأعطى شنطة فيها كيماوي وسأحملها معي للمنزل. فالكيماوي سيبقى موصول بجسدي من خلال حقنه في الوريد

وأحمله معي للمنزل ليبقى في جسمي لمدة ٤٨ ساعة أخرى. هكذا سأمضي يومين ونصف في أخذ نوعين من العلاج الكيماوي، ثم أعود يوم الأربعاء للمستشفى لتسليم الحقيبة ونزع الإبرة من الوريد.

أخرج من العلاج الكيماوي حاملا معي مزيدا منه، الملتصق بجسدي، المفروض أن يقتل كل الخلايا في الجسم لكي يتقلص السرطان وتعود الخلايا للنمو بحالة صحية. كنت بالبداية متخوف من العلاج الكيماوي، هل سيضعف ذاكرتي هل سيؤثر على عقلي، هل سيتعبني كثيرا. كل هذا انتهى وسقط مع استمرار السرطان وضرورة مواجهته بالأسلحة كلها.

حذرتني الممرضة: «الآن لا تستطيع القيام برياضة كما ترغب، المشي مناسب لك. بعد أن تنتهي من الكيماوي، تبدأ الحرب داخل جسدك بين الكريات، وتبدأ بالتحسن إلى أن يأتي الموعد الثاني للعلاج الكيماوي. مرة أخرى علاج جديد لمدة ثلاثة أيام يقتل كل الخلايا ويتركها لتبني نفسها قبل أن تعود بعد أسبوعين للجلسة الثالثة ثم الرابعة... يجب أن تنتبه أن مناعتك ستكون في حالة هبوط ويجب أن تتفادى المرضى بالرشح مثلا، وأن تحمي نفسك من أي مرض أو زكام».

بعد الكيماوي الأول صحوت صباحا، لا أشعر بجوع ولا بعطش، بل بتعب يلتف حول جسدي، لكني قاومت الشعور بالتعب. أكلت ثم قمت بشرب الماء بصورة متتالية فشعرت بتحسن وبقوة جديدة لكنها لا تعيدني لحالتي الطبيعية، مجرد تعطيني قدرة على التركيز والعمل والتحرك ضمن المنزل والسير بهدوء لو أردت. لكن شعوري بالهدوء الكبير هو الأقوى اليوم، هدوء بل صمت داخلي غريب. يقال أن الكيماوي يغير المزاج، يجعلك مختلفا منطويا، لكن هذه ليست شخصيتي، بالطبع سأقاوم، لكن سأبذل جهد أكبر للخروج من حالة الهدوء الكامل. إنه هدوء مرتبط بالمواد التي استقبلها جسدي وخاصة أنني مستمر في أخذ الكيماوي لليوم الثالث والليلة الثانية على التوالي. كل هذا لقتل جزء من السرطان خاصة تلك النقطة الخطرة البعيدة التي لو لم يتم التخلص منها فهي ستتخلص مني. هذا صراع جبابرة، صراع موت وحياة، لهذا سأتحمل كل هذا من أجل الانتهاء من السرطان الأخطر

الذي بدأ في كسر جدران المعدة والهروب لخارجها لإحداث الضرر الاكبر في الجسد. أما أنا فلا خيار لدي سوى التعاون مع الأطباء للرمق الأخير، والإعتماد على تصورهم للحرب ضد السرطان. بعد ثلاثة أيام كيماوي، بدأت الإثنين وكأني هبطت تحت الأرض مئات الأمتار، بدأت بالخروج من الحالة يوم الخميس قليلا، لكن يوم الجمعة أي اليوم الخامس ثم السادس كانا الأفضل. شعرت ببعض الانتعاش والمقدرة على تناول الشراب والغذاء، لكن بحدود، بنوع من التمنع، كأن شهيتي المغلقة بدأت تفتح.

في حالة كهذه كل شيء قد يقع، بما أني في السابق مريض ديسك وكنت أعالجه دوما بالرياضة والسباحة، وبما أنني الآن في حالة جلوس منذ بدأت الكيماوي، عادت آلام الديسك. كل شئ أحيانا يتراكم. لكن هنا لا مجال للاستسلام، ففي أوج الكيماوي والتعب منه بدأت برياضة للظهر وعدت للسير، وقمت بذلك على مدى عدة مرات كل يوم... فعلا سيطرت على مشكلة الظهر بالتمارين البسيطة والسير اليومي. قلت لنفسي «لا مجال لمعارك جانبية، لابد من عدم فتح باب آلام وأوجاع جديدة».

الأكل بدأ يصبح مشكلة لأن الشهية تموت مع العلاج الكيماوي. الشهية صفر في الأيام الأولى، لكن عودتها تأخذ وقتا، بل عندما تشم الأكل أو تراه تشعر ببعض الغثيان. أقول لزوجتي: «يبدو أن هذه أيضا من علامات الحمل، وأي حمل».

الأكل تم فقط في اليوم الثالث، لقم صغيره، لكن بالرابع أكثر وبالخامس وجبة صغيرة، اما في السادس فأكلت وجبتين متوسطتين، شعرت براحة وان كانت العلاقة مع الأكل لا تزال بين المحبة والتوجس.

بعد ستة أيام من الكيماوي، عادت إلي الحياة وعدت إليها. عادت الطاقة، وعادت الشهية، كل شئ بدا وكأنه عاد لطبيعته، حتى السرطان الذي أدى لشعوري بصعوبة في شرب المياه والأكل لأن كل شئ يتوقف في مكان ضيق في نهاية المرئ قرب المعدة، بدا أخف. قلت لنفسي هل يعقل أن السرطان تراجع بهذه السرعة! تساءلت «كم يمكن أن يكون تراجع»! طبعا لن أعرف إلا في الفحص بعد شهرين.

كل هذا كان يقع بينما تنتشر الكورونا في كل مكان وتتحول لوباء عالمي. وبينما قال لي الأطباء أن أمارس حياتي بشكل طبيعي وأتفادى من هم في حالة زكام ومرض معدي، إلا أن الأمر تغير مع الكورونا. لقد أصبحت هدفا للفايروس الجديد وذلك لكونه يهاجم الأجساد الضعيفة كمرضى السرطان بحكم تدني وعدم وجود أي مناعة، أو كبار السن أو من ذوي الأمراض الأخرى التي تضعف المناعة. هكذا أصبح لزاما علي أن لا أتحرك بين الناس، أو التقي أحدا إلا في الحد الأدنى، وأن أبقى في المنزل معظم الوقت، وأن أخرج للسير عندما أقوى في الهواء الطلق، وأن لا اختلط أبدا بالناس خارج العائلة الصغيرة. كل هذا لمنع أن يضاف على علاج السرطان كورونا. وقتها تكتمل المشكلة، بل لو وقع هذا السيناريو لعجز الأطباء عن مساعدتي، وربما أوقفوا علاج الكيميائي لوقت غير معلوم بانتظار شفائي. تتعقد الأمور هكذا. ولو وقع هذا السيناريو سيصاب أفراد ربما من عائلتي المعنيين بمساعدتي في فترة المرض، بل سأعزل عنهم ويعزلوا عني. هذا بالنسبة لي مزيدا من التشدد في عملية الاختلاط.

عقدة التعامل مع السرطان تتعقد بسبب الكورونا. الآن أصبح الطبيب لا يريدني أن اختلط بأحد، أن لا أستقبل زائر أو أن أذهب لمكان أو أجلس في قهوة. بوجود الكورونا أصبحت هدفا للفيروس بسبب أن الكيماوي يدني كل أنواع المناعة عبر تدمير كريات الدم الحمراء والبيضاء وصفائح الدم. يهدف هذا الوضع لتدمير السرطان ومهاجمته.... لكن المناعة تختفي مما يعني أنني معرض للرشح العادي وما شابه وبوجود الكورونا ستكون إصابتي بها مشكلة كبيرة.

هكذا تمر الأيام ولا وسيلة للتواصل مع العالم الخارجي سوى الانترنت الجبارة والهاتف الذكي، لكن بلا لقاء مباشر مع أحد إلا في حالات نادرة. هكذا ستمر الفترة الخاصة بالعلاج مع محاولة التأقلم مع الكورونا.

في تجربة المرض هنا في العاصمة الأمريكية لا يسعني إلا أن أقول أن الممرضات والممرضين كانوا قمة في الرقي. كل ممرضه تبذل جهدا مضاعفا. فالممرضة تأخذ كل

اجراءات الوقاية عندما تتعامل مع العلاج الكيماوي وعندما تقوم بغرز الإبرة في الوريد. هي تضع الكمام، تضع الكفوف، تتأكد من التعقيم المستمر خوفا من نقل جرثومة إليّ من خلال الإجراء وفي عملية مكافحة السرطان. الممرضات بالاجماع يتميزن باللطف، يعرفن أنهن في مكان خاص وأن هناك أبعاد نفسية لكل مريض. تعاملهم يتميز بالهدوء، والدقة. تقريبا ثلاث ممرضات حاضرات في عملية ضخ العلاج الكيماوي في الوريد. ممثل الصيدلية من جهة وممرضتين من القسم المعني. يتأكدوا جميعهم من اسمي ورقمي ويوم ولادتي ومن المعلومات على العلاج الكيماوي وأنها معمولة خصيصا لي قبل البدء بالعملية. الخوف من الأخطاء ومن اعطاء مريض دواء مريض آخر يجعل التأكد والمراجعة في كل مرحلة هام جدا بما فيها أبسط اجراء في هذا المستشفى.

يرن الهاتف وإذا به السفير الكويتي الشيخ سالم الصباح. «ماذا حصل؟».

عندما شرحت له تضايق. «أنت تمر بشئ كبير، كم أنا أسف أنك تمر بهذا يا عزيزي».

شكرته كثيرا على لطفه، لكن بنفس الوقت كنت أقول له فعلا: «الآن لا أشعر كما شعرت في البداية، الآن تأقلمت». وكما قال لي دكتوري الجراح الأساسي الذي قدمت له و.ر، الطبيب الراقي والرقيق والجراح الكبير: «هذه رحلة، اقبل عليها على أنها رحلة جديدة ستأخذ منك جهدا ووقتا، لكنك يجب أن تجتازها لتصل لشئ آخر ترغب به. إنها رحلة».

بالفعل أخذت بنصيحة هذا الجراح: هذه رحلة، أُقبل عليها، رحلة كما لو تكون معركة في جنوب لبنان، أو تلة يجرى تحريرها أو حملة سياسية تتجه لتشويه بعض ما اكتب أو اقول، أم انها مشروع كتاب جديد، هكذا هذه رحلة كما الكتاب رحلة كما الحرب رحلة. المرض والتعامل مع السرطان هي الأخرى رحلة ما بعدها رحلة، أليست كل الحياة رحلة وتنقسم لرحلات، ثم تنتهي برحلة أبدية أخرى. قررت أن أُقبل على هذه الرحلة وقلت لنفسي: «قد تكون الأخيرة لهذا سأخوضها بشراسة وشجاعة وكبرياء، لكن قد تكون رحلة وسيطة بين رحلات أخرى، سأخوضها أيضا بشجاعة وكبرياء».

وقعت المفاجأة عندما أخذت الكيماوي الثاني. لم يظهر أي تعب في اليوم الأول مساءا أو في اليوم الثاني. لكن في اليوم الثالث ومع استمرار الكيماوي في الوريد بدأت أشعر بالتعب، لكنه كان أقل بكثير مما شعرت به في المرة الأولى، ربما نصف حالة التعب. هذا معناه أنني إما تعودت عليه، أو أن جسدي أصبح أكثر تقبلا، أو خليط من العوامل. هذا مريح نسبيا. ففي المرة الأولى شبه انقطعت عن الأكل، في المرة الثانية أكلت بشكل طبيعي لكن مقتضب. مع ذلك ومع أن الشرب هو الأهم في هذه المرحلة أجد نفسي مضطرا لفرض الماء فرضا، لسبب أو لأخر أنا لا أشعر بالظمأ. فجأة تغيرت علاقتي بالماء، بسبب الكيماوي لا يعرف الشخص ما الذي سيتغير، فجأة بدأت أشرب الماء بشرط عصر كمية ليمون فيه.

مع الكورونا أضيف مصدر جديد للعزلة، فإضافة للكيماوي لن أستطيع الذهاب والإياب والخروج والتنزه عندما أشعر بالقوة. لن أستطيع الذهاب للنادي مثلا، أو مقاومة الفترة التي يتعبني فيها الكيماوي. كل شيء أصبح محجورا عليه. الشوارع خالية، النادي التابع للمبنى الذي أسكن به أغلق. كل العالم في حالة إغلاق. والطبيب يصر على أن لا أخرج أبدا، سوى للسير رياضيا في الشارع في أوقات هادئة، لمدة نصف ساعة عندما أستطيع. ففي كل مرة أحاول الخروج أتذكر حجم المجازفة. انتقلت من كوني سليم معافى، بين يوم وليلة، لشخص بلا دفاعات وبلا مناعة بحكم طبيعة الكيماوي وطبيعة المرض الذي هاجمني وهذا يعني أن الكورونا لو وصل إليّ لن يتركني بخير، هذه معركة أخرى موازية. لكن الطبيب سمح لي أن اسير في طرق مفتوحة ومناطق غير مزدحمة، وهذا ما سأفعله عندما أكون سليما ومعافى. عندما لا أشعر أني محطة بنزين.

وسط كل هذه المخاوف، جاءني اتصال من المشفى بأنه: «لا يمكن لزوجتك أن ترافقك لجلسة الكيماوي القادمة. عليك أن تأتي لوحدك. إن أوصلتك، تأتي فقط لأخذك من باب المشفى. أما الطبيب فلن تقابله، لكن بالإمكان التحدث معه عبر الهاتف مطولا. لا داعى للمقابلة الشخصية طالما أنك قابلته من أسبوعين. إذهب فورا لفحص الدم ثم لجلسة الكيماوي».

بدا المشفى خال من الناس، الموظفين أقل فأقل، المرضى أقل وأقل، أُلغيت كل العمليات الاختيارية، الغير ضرورية وأُلغيت كل المواعيد التي يمكن تأجيلها. أُلغي تماما دور المرافقين للمرضى، المكان الذي يتسع لسبعين، فيه الآن ١٢ مريضا. حتى مرضى الكيماوي الذين يمكن تأجيلهم لأن المواد التي يأخذونها هي مواد صيانة وحفظ من المرض تم تأجيلها لفترة شهر. الكثير من مرضى الكيماوي أخذوا علاجهم واستمروا في المنزل. فجأة تغير كل شيء. هذه المرة في المشفى لم أجد أحدا بلا قناع، بل واقي على الفم والأنف. لقد ازدادت الاجراءات زخما وقوة.

طبعا تسير في الشارع وإذا الذي أمامك بدأ يهرب باتجاه آخر من بعد مائة متر. شعور غريب أن الناس تتفادى الناس وتتفادى أن تسلم على بعضها البعض. بنفس هذا الوقت تحاول الكويت أن تخلي ١١ ألف مواطن عالقين وغير قادرين على العودة للكويت. الطائرة التي نقلت أكثر من مائتي مريض، هي الأخرى تبين أنها حملت معها ١١ مصابا مرضى.

مع السرطان تحرم نفسك من أمور كثيرة، ففترة العلاج بطبيعتها متعبة، لكن يتوفر لك وقت للعلاج مع الكيماوي والتعب الذي يخلقه في الجسد. بعد عدة أيام أو ستة أيام تعود لقوتك ونشاطك، وهذا يفتح لك الباب لتمارس كل ما تحب، لتذهب للرياضة وتلتقي المعارف، وأن تذهب مع العائلة، ربما لمطعم أو مكان عام. لكن بوجود كورونا في الأفق ثم مع بدء الانتشار وجدت نفسي مضطر للتعايش مع العزلة.

بدأت أفكر في كل ما أحب أن أقوم به، وكيف تغيرت الأحوال بين ليلة وضحاها. الخروج في الهواء الطلق استمر سيرا على الأقدام في محيط المنزل. لكن ما عدا ذلك فكل شئ مغلق وأنا هدف للفيروس بحكم السرطان والمناعة والسن. علي أن أخرج واضعا القناع، وأن أعود خلال ساعة لأختبأ. كورونا غيرت الكثير. الدنيا انقلبت، الأولويات تغيرت الأمور نحو العائلة والوحدات الصغيرة، والأصدقاء المقربين. كل شيء تغير، يبدو أن الإنسان يتأقلم مع الأصعب بسهولة، يتخلى عن كل شئ، عن الخروج وعن الرياضة اليومية

ويستعيض عنها برياضة في منزله، أو سير حول منطقته. يتخلى عن عاداته اليومية لصالح الهدوء والصفاء وأحيانا كثيرة الوحدة.

الكثير من الناس لن يستطيع التأقلم بسهولة، لهذا يغزوه القلق، والانغماس بالتفكير. لكن في حالتي متنفسي هو الكتابة والقراءة، لكن الكتابة والاستمرار فيها ومن مشروع لآخر. متنفسي الآخر أن اجلس واحضر فلما ممتعا. هكذا أصبحت أحضر فلما جميلا كل ليلة مع زوجتي أثناء هذا الحجر. هذه عادات كنا نعملها قبل عشرات السنين، وها بنا نتصادق ثانية ونبدأ بالبحث عن المشترك، وفي حضور الأفلام. تغريد تقضي وقتا في القراءة وفي المتابعة وأنا أخذ وقت لكتابتي التي استمتع بها. ثم نتواصل أكثر وقت الغداء والعشاء وأثناء الرياضة اليومية والسير في محيط المنطقة التي نعيش بها.

الإنسان قادر على التأقلم، أنا أعاني من السرطان، لكني تأقلمت معه ومستعد لتقبل كل النتائج بما فيها أصعبها، فكل صعب مفتاح لفرج ومفتاح للجديد اكان في هذه الحياة أم في حالة ما بعد الحياة. لهذا التقبل مفتاح، والتعايش مفتاح. لكن القتال أيضا لما تحب مفتاح هام. فأنا أتقبل العلاج، اسمع نصائح الأطباء، احافظ على طاقة إيجابية كل الأوقات وأصعبها، أتابع كل ما يتعلق بعلاجي بهدف اتمامه والتأهل للشفاء. الصراع بين السعي للشفاء وبين استحالته مرتبط بالمريض ومعنوياته وتفاعله.

قبل أن أشخص بالسرطان، كنت أعمل عشرات الأمور كل يوم، اكتب وأدرس، والتقي الطلبة والطالبات، أشرف على رسائل للماجستير، وأتحدث مع زوجتي، ثم مع ابنتي وابنتي وابني، واحرص على لقاء يومي رغم اصرار زوجتي أن هذا غير كاف وأنني كثيرا ما انشغل وقت العشاء وأحيانا كثيرة في نهاية الأسبوع. كنت منغمسا بكل شئ، أعمل الرياضة اليومية واسمع الموسيقى وأسافر من بلد لآخر مقدما محاضرة وراء الأخرى، واذهب لمعارض الكتب، واجلس بالمقاهي، وألتقي الأصدقاء والمعارف المقربين، وهكذا دورة الحياة اليومية. إذا بكل هذا مع المرض يتعطل أمام فرامل مفاجئ جاءني من جراء خبر سريع عند الطبيب.

عندما تسمع خبر كهذا، لا تفكر به كثيرا بل تقول لنفسك أكيد في خطأ. لهذا تستمر في عملك العادي، لديك لقاء تلفزيوني هنا ومؤتمر هناك بعد أسبوع، ولديك التزام وموعد واجتماع. تستمر الحياة وكأن شيء لم يحصل. إلى أن يأتي تشخيص أكبر من مستشفى مكي جمعة يؤكده وإلى أن تبدأ بإجراءات العلاج والسفر، وهذا يعني أنك بدأت تخفف من التزاماتك. في البداية أردت أن أحافظ على التدريس أثناء الفصل، واستعديت لهذا الاحتمال، لكن الوضع بعد ذلك، وكما أوضح لي الأطباء، أني لن أكون قادر على فعل ذلك وأن من الأفضل أن أخذ إجازة طبية طويلة.

عندما يتخلى الفرد عن الالتزامات، يشعر بالخفة، لا شئ محدد في اليوم الثاني سوى الطبيب، سوى الممرضة التي ستفحص دمي، سوى الممرضة الأخرى التي ستضع لي محلول الكيماوي. هكذا تصبح المستشفى جامعتك الجديدة مكان عملك، رئة حياتك. مع هذا كله يصبح الطبيب هو الصديق الجديد وهو الذي يملك مفاتيح المعرفة والحياة الجديدة، تعليماته أساس تصرفك، والمواعيد التي يقررها أو الفحوصات مهما كانت كبيرة هي التي ستقوم بها بكل راحة وسعادة. الطبيب هو الذي يقرر بناء على الفحوصات، وضعك ومصيرك وحالتك.

دورة الكيماوي الثالثة، مضنية ومتعبة. لا تستطيع أن تلمس شيئا باردا بيدك، يبدو أنه يوثر في الأعصاب، لكن ذلك يذهب ويختفي بعد أيام. التعب كبير، تشعر بأنك هبطت مرة واحدة.... لا تقوى على شئ. شعور يستمر ليومين ولثلاثة في أوجه. وكأنك في قمة القاع.

الكيماوي يأخذك خطوات نحو الموت، ثم يرفعك ثانية، كل هذا لتقتل السرطان أو تقلصه أو تخفيه، أو تفرض عليه الإبطاء. وهل من بديل! لا يبدو، أنت تسير نحو الدواء الكاسح المدمر بلا خيارات.

كيف تتعايش مع مرض السرطان! مررت بمراحل عديدة، في مرحلة بدأت أقرأ كل شيء. أبحث في الأمر، بطبيعة الحال وجدت الكثير، لكن هذا الكثير يميل للتشاؤم، خلق عندي قلق. كلما قرأت تبين لي أن أيامي معدودة، وأن الموت قريب. كلما قرأت تبين لي أنني

سامر بآلام كبيرة لا يتحملها إنسان. كلما قرأت علمت أن الأطباء سيقولوا لي كما قالوا لغيري: «لم يعد هناك ما نستطيع فعله».

لكن بعد يوم أو يومين من هذه الحالة النفسية، انتبه لنفسي/ لقد غاليت، حالتي ليست كحالة أي من الذين قرأت عنهم. يجب أن أهزم المرض وأن اتصدى له. لكن صوتا آخر يقول لي أن المرض بيد البيولوجيا والأطباء، وليس هناك الكثير لأعمله، لأتفادى الطريق المسدود. ثم صوتا آخر يقول لي أن هناك الكثير وأهمه أن أبقى على تفاؤلي، وأن لا أنجر للسلبية، والنجاح هذا يتطلب انضباطا حديديا.

أولا: علي وضع أهداف مباشرة والنجاح في تجاوزها وهو الأساس. هو المدخل لتغيير الموقف أي يجب علي أن لا أفكر بماذا سيقع بعد شهر، بل بعد يوم وأن آخذ كل يوم بيومه وأن اجتاز جلسات العلاج الكيماوي واحده تلو الأخرى. كل مرة يجب أن أركز على المباشر، والنجاح في المباشر، وأن لا أرهق نفسي بمشاعر سلبية عن الممكن والقادم البعيد أو المتوسط. علاج السرطان مليئ بالمشوشات والأفكار السلبية والسوداء، والصراع ضد هذه الأفكار أساسي لمواجهة المرض، كل قلق يضيف على المرض، كل قلق هو تغذية للسرطان، كل قلق هو إضعاف للمناعة.

بعد شهرين من الكيماوي، جاء وقت الفحص، نمت تلك الليلة قبل الفحص أفكر بالنتائج. لكني طردت الأفكار السوداء، فيمكن أن يلاقي الطبيب انتشارا كالذي تحدث عنه الأطباء، أي حالة انتشار مدمرة، وأن يقول لي الطبيب: «متأسف لا يوجد الكثير لنفعله بالنسبة للعملية، عليك أن تتعايش لبضعه سنوات مع السرطان». لكني طردت الأفكار السوداوية نهائيا. عدت لالتزامي: لن أفكر بالنتيجة، سأفكر بأني استعد لفحص كبير، وأن النتيجة قد تكون رائعة. نمت بلا تفكير بالفحص....جاء الوقت، ذهبت صباحا بلا طعام وقد سمح لي بشرب المياه فقط. الفحص الأول هو البيت سكان الذي يبرز كل الانتشار السرطاني في الجسم. أما الثاني وهو السي تي سكان الذي يبرز أمور أخرى في الجسد.

مر يومان، لم أفكر كثيرا، عشت اليومين بشكلهم الطبيعي، استمريت على عهدي بأن لا اسمح للقلق، بل أترك الأمر للحظة اتصال الطبيب، وأن غياب الخبر هو خبر جيد. جاء الاتصال، فاجأني الطبيب عندما قال وهو الذي كثيرا ما يقدم الأخبار المتشائمة إليّ. قال لي: «أخبار سارة إيجابية» طبعا بتحفظ.

سألت: «كيف».

قال: لم نجد ولا نقطة انتشار في جسدك. بل وجدنا أن السرطان في المعدة قد تقلص قليلا. هذا خبر سار لأن بعض السرطانات من فصيلة ما هو لديك لا تتقلص ولا تتأثر، لهذا نشعر أننا حققنا تقدما، كما أن النقطة البعيدة في جسمك قد صغرت، وهذا إيجابي أيضا». عموما النتائج مرضية. لقد استفدت من العلاج، وقد تراجع السرطان بنسب مختلفة في كل مكان في المعدة والمريء ثم في الموقع المنتشر في الليمفاوي قرب الشريان الاورطي. خبر جيد. لكن الأطباء خاصة في مجال الكيماوي يحذرون دائما: «قد يكون هناك أمر مخفي من الجزئيات التي لا نراها، فلا تتفاءل كثيرا ولا تتشاءم، ابقى في الوسط».

قلت: «وماذا عن العملية!».

قال: «ليس الآن وقت التفكير بها. لابد من التأكد من أن السرطان لن يتقدم من النقطة البعيدة، وأننا قضينا عليها، وأنه لا يوجد غيرها الذي لا نستطيع أن نراه. لهذا سنعطيك كيماوي إضافي لشهرين، وبعد شهرين نفحص مرة ثانية. لكن الكيماوي القادم سيكون حبوبا، ولن يكون في الوريد. ستأخذ الحبوب كل يوم، وسنريحك ليومين نهاية كل أسبوع».

سررت كثيرا لهذه الأخبار، قلت للطبيب: «إذن أنا صعدت خطوتين الآن مهمتين نحو العملية».

أجاب: «من المبكر حسم أمر العملية، لكن أنت تقدمت باتجاه ذلك، وهذا بحد ذاته إيجابي» ثم أردف قائلا إن الحبوب ستجعلني لا أذهب للمشفى، وهذا مفيد جدا في وقت الكورونا، فأنت الآن بخطر كبير لو تعرضت للكورونا، بل أنها أخطر عليك من أي شئ آخر بحكم مناعتك الضعيفة بسبب الكيماوي وبسبب السرطان.

سأعطيك الآن الحبوب، فأنت استفدت من الكيماوي في الوريد، لكن ذلك لا يمكن الاستمرار به إلى الابد، فهو أيضا يخلق لك أمور جانبية قد تتحول لمشكلات دائمة في العصب والقدمين. لهذا سأعطيك الحبوب لمدة شهرين ثم نقيم بفحوصات شاملة. لكن قبل أن ابدأ هناك نقطة اكتشفنا وجودها في جسدك قرب أعلى الصدر وقرب الرقبة، علينا أن نأخذ منها عينة. لو كانت سرطانية ستكون مشكلة في حالتك، لأنها ستعني أن السرطان يغزو كل جسدك، وأن فرص العملية ستتضاءل حيث المعدة. لنحدد موعد للفحص. سيكون بواسطة أبرة طويلة تخترق الجسم قرب الرقبة وأعلى الصدر. لم أشعر بألم سوى متوسط والسبب هو نوع البنج الموضعي. تم أخذ خمس عينات من تلك البقعة. جاءت النتيجة أن تلك البقعة ليست سرطانية. سعدت بذلك. أما مكالمة الطبيب فكانت على الشكل التالي:

«لدى أخبار سارة، لم نجد سرطان، لكن الخبر السيئ أننا لم نجده، لأنه قد يكون كامنا ولم تكن قدرتنا على أخذ العينة كافية. سنراقب البقعة لنرى هل تكبر أم تصغر في الفترات القادمة».

بهذه البرودة ستسمع، فالأطباء يصارحوك في كل خطوة حتى لو كان لك ساعات في الحياة. وأنا شخصيا كنت أخذ كل هذا وكأنه يتحدث عن شخص آخر. لأحمي معنوياتي تصرفت مع المرض وكأنه لجسد غير جسدي وجسم غير جسمي. لقد حافظت على روحي واعتبرت جسدي ملك للآخرين والحديث عنه حديث عن أجساد أخرى. لقد رحلت بعقلي، وهذا الأهم ورحلت بروحي لمكان آخر، ولهذا لم يعد يؤثر بي أي شيء. لكن عندما اسمع خبرا إيجابيا أفرح، لكن عندما يأتي خبر سلبي أو وسطي، اتعامل معه بحيادية.

أثناء أخذ الحبوب، وقعت مفاجأة. فجأة وعلى مدى أيام عدة لم أعد أستطيع شرب المياه والأكل بسهولة، فكل شيء يعلق في المريء، بل في أحد الأيام شعرت بأن المريء على وشك أن ينفجر من تراكم الخبز والأكل في مجراه. شعور مزعج، مؤلم باعتدال، يجعلك تصمت لدقائق لريثما يؤدي شرب المياه للتخلص من هذا التراكم.

بعد يومين جاء الهاتف مرة ثانية. في لقاء البورد الخاص بالمشفى أثار البعض وجود نقطة بحدود سنتمتر في أعلى الصدر أسفل الرقبة، وفي منطقة الليمفاوي. بدأ الحديث ثانية عن إمكانية انتشار السرطان في جسدي. وأنه من الضروري فحص هذه النقطة الظاهرة في فحص البيت سكان الاشعاعي. عاد إلي الطبيب بضرورة أخذ عينة من هذا المكان. فإن كانت سرطانية ستختفي إمكانية العملية، وعليك أن تعيش وتحيا مع السرطان في جسدك. لكن لو تبين أنها غير سرطانية فموقفك باتجاه العملية سيصعد بضعة خطوات.

ذهبت للمشفى، بالطبع المشفى يصر على عدم وجود أحد معي طالما أنا قادر علي المشي من بوابة المشفى لمكان عملية الفحص. وهذا هدفه الحد من انتشار الكورونا وعدم تعريض أي أحد معي لاحتمالاته. ذهبت للمشفى واستعديت للإجراء. لكن الطبيب خيرني بين البنج العام الأوسع والذي يؤدي للنوم أثناء الاجراء وبين البنج المكاني الموضعي، وشعوري ببعض الألم. فضلت بعض الألم على البنج الذي سيعني بقاء أطول في المشفى تحت الرقابة بعد الاجراء. أحببت أن أرى الاجراء كاملا.

وبالفعل كان الاجراء ميسرا، أخذ الطبيب عينات بواسطة إبره دقيقة ادخلت من صدري نحو الليمفاوي، على مدى نصف ساعة سحب ٥ عينات من تلك المنطقة الصعبة، بعض العينات لم تكن ناجحة لكن بعضها كان ناجحا وكافيا للفحص المطلوب. جاء الهاتف من الطبيب المختص أخذت خبرين في ذات الثانية والدقيقة.

تبين أن هذه البقعة ليست سرطانية لكنها رد فعل طبيعي للجسم تجاه بعد أمراض الرشح والانفلونزا. هكذا تحسن موقفي نسبيا، والآن بقيت إمكانية العملية مفتوحة وبعد الانتهاء من الكيماوي الذي سيستمر لشهرين آخرين. كحال الكثير من علاجات السرطان، لا يوجد

شئ مطلق أو اكيد، كل الأمور تبقى في حيز الاحتمالات، والخبر الجيد يقف بجانب السلبي، وإمكانية العملية تقف بجانب إمكانية عدم حصولها.

اتصلت بالطبيب الخاص بالكيماوي، لكن طبيبي الجراح الأساسي كان لا بد من اعلامه. شعرت أنه تخوف، هل يعقل أن يكون السرطان الذي تقلص في الدورة الأولى قد عاد ثانية وبعدائية للانتقام. هذا يحصل في العلاج، وقد يكون الآن واقع جديد. السرطان عاد بقوة وزخم وروح انتقام، وقد يكون الآن يضرب في كل مكان، وما شعوري في منطقة المريء سوى تعبير عن مشكلة أكبر في المعدة وبقية الجسم.

تحرك الطبيب الجراح المميز، ورتب لي موعد لناضور من الفم للمعدة مع استخدام الالترا ساوند. ذهبت للمشفى، طبعا بعد صيام منذ الليل لظهر اليوم التالي. جهزتني الممرضات عبر عشرات الأسئلة عن كل شئ يتعلق بالمرض، قابلت الطبيب وسألني كل الأسئلة. كل هذا وأنا في سرير سيتم تحريكه في أي وقت لغرفة الاجراء التي هي أساسا غرفة عمليات متوسطة الحجم. ففي كل فحص اجرائي من هذا النوع يسألونك عن كل شيء. لا مجازفة في المشفى، كل شئ يتم استقصاءه قبل الاجراء، يتم فحص الضغط والحرارة، وأسئلة عن القلب والأمراض السابقة وتاريخ كل عملية. بل تصل الأسئلة إن كنت مدخنا أم لا وإن كنت من المتعاطين أم لا وإن كنت من شاربي الكحول أم لا. كل شيء يعني شيء، ليس فقط للاجراء، بل في حالة حصل حدث غير متوقع. معرفة كل التاريخ ستساعد على التصرف وحل الاشكال. في هذه المراكز الطبية كل اجراء يتضمن الاستعداد لأسوء الاحتمالات: نوبة قلبية، دخول مياه للرئة، جلطات، نزيف، وغيره.

تم نقلي بالسرير المتحرك، نحو الغرفة، فوجئت الغرفة مليئة بالممرضات، واحده للشاشة التي تقيس كل شئ، واحدة أخرى مساعدة للطبيب في الاجراء، وثالثة تعيد سؤالك عن كل المعلومات، ورابعة مسؤولة عن الالترا ساوند والأجهزة التي تتعلق بالناضور، إضافة لطبيب البنج. ثم بعد قليل يأتي الطبيب الذي كان قد أنهى اجراء قبل قليل في غرفة أخرى. الدكتو ر.ح رئيس القسم لهذ الوحدة. كان قبله قد قام بذات الاجراء د. و. ش. كلاهما من لبنان،

استقرا في الولايات المتحدة درسا فيها وأبدعا في مستشفياتها. تركا وطننا العربي بسبب كل ما فيه من مشكلات وعدم استقرار، وسوء إدارة. ورغم أنهما يعالجان كل الناس، مر عليهما في سنوات عملهما الكثير من المرضى العرب. تحدث معي الطبيب، عاد وسأل بعض الأسئلة، بل قال لي للتأكيد لابد من أن نسأل ثانية عن اسمك الكامل ويوم ميلادك، هذا السؤال يتم سؤاله عدة مرات قبل كل اجراء لضمان أن لا يكون الطبيب قد دخل على المريض الخطأ. التأكيد كل مرة أسلوب ومنهج، لضمان تقليل الأخطاء وتفاديها.

نمت، صحوت في غرفة أخرى مخصصة لمن انتهوا من الاجراء. إذ بممرضة أخرى تقف قربي، قلت لها: «انتهى كل شيء!».

قالت: «نعم».

قلت: «هل من نتائج!».

قالت: «تبدو جيدة، لكن عليك أن تنتظر الطبيب، هل أتي لك بالقهوة أو مياه؟».

قلت: «أريد الاثنين».

انتظرت مجيئ الطبيب، وأنا مستلقي على الفراش، احتسى القهوة، وأحاول أن أتعامل مع هاتفي لكي افتح الصفحة التي ستأتي لي بمباراة كرة القدم، فأنا متابع لبرشلونة وتسحرني طريقة لعب ميسي. جاء الطبيب فتوقفت.

قال: «نتائجك رائعة، لقد تراجع السرطان في المعدة من ١٠ ونصف سنتمتر، إلى ٦.٥ سنتمتر، عمليا استطيع أن أقول لك أن السرطان تقلص بنسبة ٣٠ ٪. هذا خبر ممتاز، فهناك أجساد لا يتقلص بها على الاطلاق. أنت حققت نتيجة جيدة، لكن أريد أن أقول لك أن سرطان المرئ وهو السرطان الممتد أصلا من المعدة قد اختفى تماما ولم نجد له أثرا أبدا. النتيجة رائعة، سنرسلها لأطباءك، طبيب الكيماوي والجراح المختص، وذلك لتقييم الخطة القادمة لك. أنت في الطريق الصحيح».

سعدت لذلك كثيرا. بعد ما يقارب الأربعة شهور من العلاج الكيماوي، أكاد أصل لنتيجة إيجابية تهيئني للعميلة الجراحية. هذا يوم جيد، بمجرد ما خفت أثار الدواء المخدر، استعديت للخروج، سترافقني الممرضة لباب المشفى حيث تنتظرني زوجتي التي لم يسمح لها بالدخول بسبب الكورونا والوباء.

الكورونا تحاصرني كما يحاصرني السرطان. وقد اعتدت على التداخل بين الاثنين. فمن غير المسموح به خروجي من الشقة سوى نزولا للسير في الشارع كرياضة وفي مناطق لا يوجد فيها حركة للناس. أما بقية الوقت ففي الشقة، فيها أنام وأكل واكتب، واقرأ، أقوم بالرياضة اليومية كذاك. بدأت أقول لزوجتي: «هذه حياة سجن» وقد اعتدت عليها. أنت تقولي لي دائما أنني «سريع التأقلم». الآن أنا متأقلم مع حياة العزلة الشاملة.

لا أستطيع أن أخفي مدى اعجابي بلطف الممرضين والممرضات، رغم انشغالهم. لا أذكر أني ذهبت لاجراء دون أن يدور حديث ما. واشنطن مليئة كورونا، لكنها أيضا مليئة بالمتفتحين. هذا يفتح الباب لنقاش وأخذ ورد، وجدت في حالات أن الممرضات يسعون للمعرفة، وبعض الأطباء يريد أن يسمع، فعندما يعرف أنك أستاذ جامعي، وبعضهم يجدك في غوغل في كل مكان، يفتح الباب لنقاش، بنفس الوقت أنا في جورج تاون، التي درست فيها في السبعينات، والمشفي مليىء بخريجي كلية الطب وكلية التمريض بجورج تاون. لحد كبير شعرت في المشفى بصداقة الأطباء والممرضات، بطبيعيتهم الإنسانية. لكن ولا لحظة لم يكونوا صريحين بكل ما للكلمة من معنى. بإمكانهم أن يكونوا في قمة اللطافة لكن بإمكانهم أن يقولوا لك الحقيقة كما هي بلا أدنى رتوش.

لكي تتعايش مع السرطان، أو مع شيء مثله، لابد من التعامل مع الوضع. مررت بأيام سلبية. مع كل خبر سلبي عما قد يقع بعد عام أو بعد ستة أشهر، كأن يقال لك «يبدو أن المرض انتشر، لا علاج ولا شفاء لك. العلاج الوحيد هو إدارة المرض قبل أن يتمكن منك، ثم تخفيف الآلام». خبر صاعق. استقبله بابتسامه، ثم بتساؤل، ثم بمحاولة معرفة طبيعة المراحل، والأطباء يتحدثون. ثم اذهب بعد ذلك للسكن، افتح الهاتف أو الحاسوب وأبدأ

بالقراءة، اكتشف قصص الناس وآلامهم مع المرض. وجدت أماكن كثيرة على النت حول الأوضاع وما يمر به الناس، فتاة تصف ما وقع مع والدتها، الكثير من المعاناة والأوجاع. كأن الجسد يموت تماما بينما الروح والعقل حي، كل شيء يقبع تحت الآلام. بالطبع أثرت هذه القراءات عليّ، بدوت كالدائخ والهائم لساعات أو ليوم ثم ليوم آخر.

سرعان ما أصبح هذا الوضع قاتلا، بإمكانه أن يكون سبب عدم هزيمة المرض، بل سبب انتشاره المبكر، أو سبب عدم القدرة على تخفيفه وإبطاءه. العلم لا يعرف كل شيء، ولا يكتشف كل شيء. لازال هناك مكان للمجهول، للمعنويات، للقوة للتفاؤل. لهذا وبعد نقاش جريء ضمن الأسرة مع زوجتي، ثم مع ابني وابنتي. بدأ النقاش «أنت تفكر كثيرا».

أجبت: «هذا صحيح. لقد سيطرت أفكار المرض السلبية عليّ».

«لماذا لا تتوقف عن قراءة تجارب الآخرين. كل تجربة غير الأخرى. ثم لماذا لا تعتبر أنك مختلف. ثم ألم يقل الطبيب نحن لسنا متأكدين تماما، وأن الشهور القادمة ستقرر مدى إمكانية العملية من عدمها. لكن الأطباء قالوا أن العملية احتمالاتها ضعيفة، وبورد المشفى للسرطان رفض فكرة العملية، باستثناء الطبيب الجراح الذي يرى أن فرصة العملية ممكنة، وستتضح بعد حين من خلال صور الأشعة والتأكد من الانتشار أو عدمه».

وصلت لنتيجة وللحظة نورانية، يجب أن أؤمن بنفسي، وأن أؤمن بقوة جسدي، وأن أؤمن بإمكانية الشفاء، وأن أؤمن بأهمية القتال من أجل العملية، ثم القتال من أجل نوعية الحياة حتى لو بدون عملية ورغم تأكيد الأطباء بأنه بدون العملية لا أملك أكثر من ٣ سنوات وربما أقل للحياة.

إذن ما هي القيمة أو الوسيلة للتغلب على السرطان! أولا قررت أن لا أفكر باليوم التالي. سأحصر تفكيري باليوم، باللحظة الراهنة. كنت قد قرأت كثيرا عن قيمة اللحظة في الكثير من الكتب الروحانية أكانت من وحي التجربة الإيمانية الإسلامية أم من وحي تجارب الروحانيات غير الدينية. قيمة اللحظة أن تكون حاضرا فيها ممتنا لها ولقيمة التنفس

والحياة في لحظتها. قررت أن أشكر هذه النعمة من خلال استيعابها ضمن برنامجي اليومي. أصبحت أقيم كل يوم بيومه، أصحو في الصباح بلا ألم، بلا ضيق، أصحو بقوة مستعد للكتابة حيث بدأت اعمل على كتاب عن القضية الفلسطينية، أمضى ساعات في العمل. في نهاية اليوم كان يوما جميلا. أرد على رسائلي، اقرأ بريدي، أتحدث مع زوجتي وابني وابنتي، ثم مع ابنتي في الكويت. هكذا يسير اليوم. طالما اليوم إيجابي فهو كل الحياة، إنه كل القيمة إنه كل شيء. أصبحت القيمة في اللحظة الجميلة ولحظة التعامل اليومي مع المرض.

بدأت أطبق ذلك المفهوم على كل شيء. مثلا كان لدي فحص يشبه العملية، بنج وفتحات عديدة في البطن وآلات تدخل وأخرى تخرج وأخذ عينات وإبر وغيره. طوال اليوم السابق للفحص أو الأيام السابقة للفحص لا أفكر به. فكرت به فقط قليلا عند تطبيق تعليمات الطبيب ليلة العملية من حيث الامتناع عن الأكل والشراب قبل ساعات من العملية. بالفعل لم أفكر بالعملية وكأنها غير موجودة، ولم أشعر بها إلا عندما دخلت غرفة التحضير للعملية وتحدثت مع الطبيب المتميز و. ر. سألته بعض الأسئلة، أجابني، وانتهى الأمر بي في غرفة العمليات نائما لا أشعر شيء.

بعد أن صحوت وعدت للمنزل، بقي تفكيري منصب على اللحظة، هل أشعر الآن بألم ! الألم قليل، هل استطيع الأكل أم لا أستطيع. تبين أن كل شيء كان بسيطا، والمسكنات هدأت من الألم، شاهدت برنامجا تلفزيونيا، ثم فيلما سينمائيا، ونمت لليوم التالي. في اليوم التالي وكأن شيئا لم يكن، الأمور طبيعية واستمرت بشلكها الانسيابي.

إن الوعي باللحظة هو الفيصل والأساس. اللحظة الراهنة والعيش معها وتبنيها كلحظة سلام، طالما استمرت لحظات التوازن والسلام، لحظات الروتين الذي تحب فأنت في حضرة النور وحضرة ما هو طيب وإيجابي. لكن عندما تكون في لحظة الألم، عليك أن تتألم في تلك اللحظة، وطالما أنك أدرت الألم وتحملته ثم تجاوزته بعد ساعة أو ساعات فأنت أيضا بخير. الأهم أن لا تحمل ألم الأمس لليوم، ولا تحمل خبر سلبي منذ أيام لليوم

الثالث والرابع والخامس، وأن لا تحمل لحظات مرت وتجاوزتها. هذا ما سيدمر معنوياتك ويقلق جسدك وينشر المرض. في الجوهر عليك أن تبني روحك الإيجابية، وتتعاهد مع نفسك على اعلاء هذه الروح. إحدى الطرق التي ساعدتني هي استعادة ما أحب عمله. الكتابة كانت بحد ذاتها علاجا. تقديم رأيي في مقابلات دائمة لوسائل إعلامية مختلفة كانت أيضا تشعرني أنني لازلت قادرا علي التفكير والتحليل وأن الدواء والكيميائي لم يفقدني ذاكرتي كما قالت بعض الكتابات.

يعطى العلاج الكيماوي على شكل دوره كاملة، ما أن ارتاح قليلا ولمدة أسبوع منه ومن أثاره الجانبية، وتعود القوة النسبية لي أجد نفسي في المشفى للجرعة الجديدة التالية التي سترهقني لستة أيام أخرى. هكذا هي الأمور ستة أيام متعبه ثم ثمانية أيام متوازنة، ثم جرعة جديدة وهكذا لمدة شهرين.

عندما بدأت باخذ المواد الكيميائية، تحملت الضيق والإرهاق الذي يخلفه، فالمواد التي أخذتها على مدى ثلاثة أيام في كل دورة كانت من القوة أنني كنت أشعر أن تفجيرا نوويا وقع في جسدي. الارهاق كان كبيرا وشديدا لدرجة أنه يشبه إصابتي بمرض النمونيا مرة من المرات. لكني أيضا تعاملت معه بمحبة، وبلا تذمر، وبصبر، وفي مرات كثيرة بصمت أو بالتحدث في مواضيع شتى لأنسى الارهاق. لكن بالطبع البقاء في اللحظة، والسعي للتعامل مع المواد الكيماوية بصفتها علاج سام جدا. جعلني ذلك أقبل عليها بتفاؤل، لهذا تحملت. العلاج الكيماوي يمنعك من الأكل يسد شهيتك، يبعدك عن الأكل والسوائل، يجعلك لا تريد عمل شيء سوى أن تبقى في جسدك وأن تبقى في مرضك. لكنه بنفس الوقت يعطيك راحة، فبعد بعض النوم تشعر ببعض الراحة، وبعد بعض الأكل تشعر ببعض الطاقة قد عادت إليك.

تمر الأيام، تبدأ تخرج من الحالة، ثم تعتاد عليها، فمع كل كيماوي يالوريد ستتعب وترهق لبضعة أيام. بالنسبة لي ستة أيام، بالطبع هناك أيام هي قمة في الارهاق، وهذه القمة لا تتعدى ثلاثة أيام. ستشعر حسب الأعراض، مثلا عندما أصبت بحالة تحسسية كبيرة لكل ما

هو بارد. لا تستطيع أن تحمل كوبا باردا أو تغسل يداك بمياه بارده، تشعر وكأن كهرباء خفيفة ضربت اليدين. هذه أعراض تستطيع التعامل معها، لكن العارض الأصعب كان حدوث الغثيان، ولهذا العارض طبعا أدوية خاصة وجدت نفسي استخدمها لعدة مرات. هكذا اعتدت أن أتحمل الكيمياوي.

بمجرد غياب تأثير الكيماوي يعود كل شيء لطبيعته، لا يعني أنه خرج من الجسد، فهو، الكيماوي، يبقى في الجسد لمدة شهر. لهذا فإن أي مجهود خارج الطبيعي يشعرني بالإرهاق. مع اليوم السادس أعود لبعض الرياضة كرياضة المشي لمدة ساعة يوميا. لكن بنفس الوقت حاولت الركض بحدود الهرولة البطيئة، لكن الجسم يتعب سريعا. لهذا أتوقف كي لا أؤثر على العلاج. فالعلاج ضرب جهاز المناعة ويجب الانتظار لبناء هذا الجهاز مرة ثانية.

وبما أنني أخذت قرار بعدم التفكير في المستقبل، فقد تجاوزت الشهرين وإذا بي وجها لوجه مع الفحص الكبير. الأطباء الآن سيقوموا بفحوصات، بالطبع لو فكرت جديا لتعبت. فهذه الفحوصات قد تكشف عدم استفادتي من العلاج الكيماوي، فالكثير من الناس لا يستفيد منه. كل ذلك يتوقف على الجسم، وعلى نوع السرطان، فأنواعه كثيرة، والأطباء لا يكونوا متأكدين من مدى استجابة الشخص. وهناك بنفس الوقت حالات يتضح أن السرطان انتشر وتوسع وازداد حجما.

قصتي مع الأكل قصة أخرى، لا يكفي أن تكون مريضا تتعالج بآخر ما توصلت إليه التكنولوجيا. ستكتشف أن العلاج لازال لا يقدر على كل شيء. لهذا فالأكل الصحي هام. توقفت عن أكل السكر منذ تشخيصي بالمرض. استمر تركيزي على الخضار، والبروتين بكل أنواعه، مع تقليل الكربوهيدرات دون أن فقد التوازن. الكثير من أنواع البذور المختلفة كانت مفيدة جدا طوال العلاج، ابنتى زينة تحضرها لي، وفي حالات تزرعها في زجاجات كبيرة خاصة، لتتحول لبراعم يمكن أكلها. غيرت شربي للمياه، توقفت عن كل شيء مصنع قدر المستطاع، مثلا لم أعد اشرب أي نوع من العصائر المحضرة والزجاجية.

لم تتوقف الرياضة. حافظت على قوة قلبي، ودورتي الدموية، وسيري اليومي في الشارع. كنت أقضي ساعة أو أقل قليلا يوميا، لكن هناك أيام يسيطر التعب والإرهاق عليّ، إلا أني حاولت المحافظة عليها أغلب الأيام. كل هذا استعداد للاستمرار في المعركة.

وسط أجواء مليئة ببعض القلق دائما، تبقى مع القلق في حالة حرب ذلك منذ بداية التشخيص حتى النهاية. لكن السماح للقلق بأن يسيطر يعني أن تذهب وراء الشمس. لابد من قرار القتال والحرص على عدم القلق. فهو عدو، القلق المحدود لا بأس به لكنه يبعدك عن الاستمتاع بما تبقى من حياتك التي قد تمتد دون علمنا. سيمنع القلق الإنسان من الاستمتاع مع الأسرة والعائلة والأصدقاء والمعارف. سيمنع القلق الشخص من الاستمتاع حتى بالأخبار الجيدة، سيستسلم للروح المتراجعة، والطاقة السلبية. هذا يعني أن جسدك سيمتلىء بالطاقة السلبية وتنقلها للآخرين. أي لن تستمتع بما تبقى من حياتك.

الموت

الموت قصة معقدة، أنت مريض سرطان وقد تموت بحادث سيارة أو طائرة، أو من مرض اخر أو من الكورونا، أو من حادث عارض لم تعمل له أي حساب. الموت واحد، وكل الناس ستموت، ولن تكون أنت أفضل حالا من والديك وكل أقرباءك وأصدقاؤك ومعارفك. الموت حق، لكن لا تستبقه، ولا تضعه ضمن توقيت محدد، عندما يأتي سيأتي، لهذا فإدارة الحياة في ظل الخوف من الموت سيؤدي لموت مبكر، لكن سيؤدي أيضا لحياة ماتت قبل أن تموت.

عند الذهاب لفحص البيت سكان وفحص السي تي سكان، تتجهز قبل ليلة. ما تأكل وما لا تأكل تذهب للفحص الذي سيبرز كل أنواع السرطان والانتشار في جسمك. قد تشعر بالقلق، ربما انتشر السرطان أو ربما توسع، ربما يوجد نقاط جديدة نجعل الأطباء يرفضوا العملية بسبب الانتشار. هذا قلق طبيعي، لكن يجب أن لا نبالغ به. نقلق قليلا، نفكر قليلا، لكن يجب أن يسكر الموضوع، ونجعل الإيمان بالله هو الأقوى. بالطبع الإيمان بالله لا يمكن ترجمته إلا إيمان بالحقيقة وإيمان بالعلم، وإيمان بالطاقة الإيجابية التي يحاول الفرد اختزانها

والإيمان بالتحضيرات التي قام بها المريض قبل الفحص من الامتناع عن المأكولات المضرة، والتركيز على المأكولات الصحية. كل هذا جزء من الإيمان والاستسلام لهذا الإيمان.

لنتخيل محارب في الحرب، إن استسلم للموت لن يقاتل جيدا، لن يستعد للمعركة بصورة جيدة، لن يقوم بكل ما يستوجب تنفيذه لمهامه القتالية في ظل حبه للحياة. بل لو كان المقاتل في الميدان محبا للحياة في معظم الحالات سيتجاوز الكثير من الهجمات.

(1) الصفحات التالية وجدتها على كمبيوتر شفيق الشخصي. هي كما كتبها ولقد تم تصحيحها إملائيا ومطبعيا.

الأنا ترجو ضمير الفاعل(2)

أ. د. شفيق الغبرا

ليت للروح يا تغريد تربة كي أزرع في روحك نبتة تُروى بدم قلبي فيزهر حبي فيك ويغنيني أن أهديك في عيد زواجنا ألف وردة.

ليتك تعرفين أيتها اللمَّاحة المرهفة أن الحب لا يثبت برمز أنهكه استهلاك العشاق والأحبة، فدعيه ينمو ويكبر، لا تشذبيه كما تنمو الأعشاب البرية في أرض بعل حرة، كوني يا زوجتي الرزينة أكثر النساء جنونًا ودعيني أعدو على مروج حبنا كحصان جامح لا يُلجم ويُكبح بنياط الالتزام بواجبات لا يقبلها تمردي الذهني. كوني أيتها الوفية المخلصة أكثر النساء حرية، لا تسجني مشاعري في غياهب رتابة الحياتي الزوجي لأبقى متذوقًا في جِنان حريتك حبَّ البدايات اللانهائي.

كوني أيتها المتميزة المنفردة في الكثير من خصائصها أكثرَ النساء عمومية، كي لا أختنق من الإلحاح والمساءلة عن التفاصيل فيلتف حبل اللوم والشعور بالذنب ضاغطًا على عنقي محاسبًا على خطأ لم أرتكبه في فعلي الشخصي.

أرجوك يا حبيبتي، وأنت أكثر النساء كمالًا، أن تسامحي لتتلاشى نواقصي في رجاحة كمالك العقلي، ويصبح الغفران واحة استراحة من تعبنا اليومي.

وآخر الأمنيات يا تغريدي وفيك وبعائلتنا، وما تزال أحلى الأمنيات أن يتوَّج زواجنا في ربع قرنه الثاني بلحن دائم مغرد شجي من روحك لشفيق الحاني الذي أُسِر طائعًا بك وبذكائك منذ أول لقاء كان.

(2) يتضح من الكلمات أنه كتبها في عيد زواجنا الخامس والعشرين.

المصادر

- Bakewell, S. (2011). How to live, or, A life of Montaigne in one question and twenty attempts atan answer. Other Press.
- Budwig, J. (2011). The budwig cancer and coronary heart disease prevention diet. Freedom Press.
- Burton-Seal, Julie. (2010). Kitchen Medicine. Merlin Unwin Books.
- Clegg, H. B., &Miletello, G. (2001). Eating Well Through Cancer: Easy Recipes & Recommendations During & After Treatment. Holly B Clegg.
- De la Forêt, R., & Han, E. (2020). Wild Remedies: How to Forage Healing Foods and Craft Your Own Herbal Medicine. Hay House, Inc.
- Eden, D., & Feinstein, D. (2014). The Energies of Love: Using Energy Medicine to Keep Your Relationship Thriving. Penguin.
- Frazier, Karen. (218). Reiki Healing for Beginners: The Practical Guide with Remedies for 100+ Ailments. Althea Press.
- Griffin, G. Edward. (2010).World Without Cancer: The Story of Vitamin B17. American MediaCA.
- Hyman, M. (2020). Food Fix: How to Save Our Health, Our Economy, Our Communities and Our Planet–One Bite at a Time. Hachette UK.
- Jimenez, Antonio. (2019).Hope for Cancer: 7 Principles to Remove Fear and Empower Your Healing Journey. Antonio Jimenez
- Jokers, David. (2020). Keto Metabolic Breakthrough. Victory Belt Publishing Inc.

- Kalamian, Miriam.(2017). Keto for Cancer: Ketogenic Metabolic Therapy as a Targeted Nutritional Strategy. Chelsea Green Publishing
- Katz, R., & Wallace, J. (2009). The Cancer-Fighting .Kitchen. Berkeley, CA: Celestial Arts
- .Margarita, A. (2019). Chakra Healing. Althea press
- McGee, Maggie. (2017) How I Beat Stage 4 Cancer, Maggie McGee Protocol: The Truth About God's Pharmacy. Createspace Independent Publishing Platform
- Mclelland, Jane. (2018). How to Starve Cancer: Without Starving .Yourself. Agenor Publishing
- Morter, S. (2019). The Energy Codes: The 7-step System to Awaken Your Spirit, Heal Your Body and Live Your Best Life. Simon and .Schuster
- Noble, N. Green Tea Anti-inflammatory Info| Inflammation .Biomarkers & Green tea
- Quillin, P., & Quillin, N. (2001). Beating cancer with nutrition. .Nutrition Times Press
- Stamps, Rodney& Paige. (2018). 90 Days to Live: Beating Cancer When Modern Medicine Offers. No Hope (Part of the Attacking .Cancer)
- Turner, K. A., & White, T. (2021). Radical Hope: 10 Key Healing Factors from Exceptional Survivors of Cancer & Other Diseases. Hay .House, Inc
- Turner, K. A. (2014). Radical remission: Surviving cancer against all .odds. Harper Collins

- Veltheim, J. (2015). The Science and Philosophy of BodyTalk: Healthcare Designed by Your Body. International BodyTalk .Association
- Wark, C. (2021). Chris Beat Cancer: A Comprehensive Plan for .Healing Naturally. Hay House, Inc
- William, A. (2021). Medical Medium: Secrets Behind Chronic and Mystery Illness and How to Finally Heal (Revised and Expanded .Edition). Hay House, Inc
- Williams, J. R. (2019). The Immunotherapy Revolution: The Best New .Hope For Saving Cancer Patients' Lives. Gatekeeper Press
- Winters, N., & Kelley, J. H. (2017). The Metabolic Approach to Cancer: Integrating Deep Nutrition, the Ketogenic Diet, and Nontoxic .Bio-individualized Therapies. Chelsea Green Publishing
- Turner, K. A., & White, T. (2021). Radical Hope: 10 Key Healing Factors from Exceptional Survivors of Cancer and Other Diseases. Hay .House, Inc
- Turner, K. A. (2014). Radical remission: Surviving Cancer Against All .Odds. Harper ONe
- Seyfried, T. N., & Shelton, L. M. (2010). Cancer as a metabolic .disease. Nutrition & metabolism. Springer
- Stegall, Jonathan. (2018). Cancer Secrets: An Integrative Oncologist Reveals How You Can Defeat Cancer Using the Best of Modern .Medicine and Alternative Therapies. Cancer Secrets
- Williams, J. R. (2019). The Immunotherapy Revolution: The Best New .Hope for Saving Cancer Patients' Lives. Gatekeeper Press

- Young, Robert O & Matt Traverso. (2019).The Cancer Solution: The revolutionary, scientifically proven program for the prevention and .treatment of cancer (Cancer diet, Healing cancer)
- Young, R. O., & Young, S. R. (2008). The pH Miracle: Balance your .Diet, reclaim your health. Hachette UK

الروتين اليومي

الروتين اليومي المتبع والذي كان يصاحبنا إلى جانب العلاج التقليدي الذي تم سرده في هذه اليوميات، رغم أن هذه الممارسات قد تبدو عقيمة وعديمة الفائدة إلا أنها كانت تخفف على شفيق الآلام والأوجاع. لقد نظرنا إلى نتائجها بشكل تراكمي وليس واحدة واحدة. وهكذا كان الروتين اليومي الذي رافقنا.

قبل الفطور وعلى معدة فارغة:

١. شاي اسحق

٢. بعد خمس عشر دقيقة، جرعة من زيت الزيتون البكر العضوي

I. الفطور

II. الغذاء

III .IIIV. بعد العشاء وقبل النوم

١. شاي أوراق الزيتون

٢. شاي الزعتر والمريمية

٣. خليط من الزيوت (٢٠ نقطة زيت كركم، زعتر وحصو البان والمر إضافة لنقطة MSM).

٤. ليموناضة مع قشر ليمون نظيف مبروش ومثلج. عضوي وطازج. بدون إضافات أو سكر أو محليات صناعية.

VI. تدريب الطاقة.

1. Essiac Tea.
2. 15 shot, olive oil minutes afterwards.

1. Breakfast.
2. Lunch.
3. IIIV. After dinner and before bedtime.

1. Olive tree leaves used for tea, ten leaves a cup boiled for ten minutes.
2. Oregano & Sage tea.
3. Essential oils (20 drops of each: Turmeric, oregano, frankincense &myrrh) plus 1 drop of MSM liquid.
4. Lemonade with Zest of lemon/ How to freeze it and use it for lemonades and salads, Juices with no sugar added and fresh as much as possible. NonGMO and or organic.

1. Energy training.

العلاج:

العلاج الكيماوي لشهرين منذ مارس ٢٠٢٠. يحتوي على مزيج من Leucovorin and Oxaliplatin وقد حقق تراجعا ملحوظا للسرطان إلا أن تم تحويله إلى Capecitabine 500 mg كي لا يذهب شفيق للمشفى في أجواء الكورونا.

الأثار الجانبية لهذا العلاج كانت مضنية مما دفع باتجاه تقليل الجرعة التي نعتقد أن لذلك أثرا على أن السرطان قوي.

العلاج الإشعاعي في ديسمبر ٢٠٢٠ لفترة أسبوعين

أخذ العلاج المناعي منذ نوفمبر ٢٠٢٠ وحتى يناير ٢٠٢١.

منذ منتصف يناير ٢٠٢١ بدأ مزيجا من المناعي والبيولوجي.

:Treatment

1. Chemotherapy for 2 months since March 2020. This was a combination of Leucovorin and Oxaliplatin. We have accomplished a good remission .BUT

2. He was switched to Capecitabine 500 mg so we do not have to go to hospital a lot. He developed strong side effects and the dose was reduced. .Here the cancer got stronger

3. He was on Immunotherapy Keytruda 11/11, 2020 till 14 Jan., 2021. It .was not working

4. .Since Jan. 14 He is on a combination of Taxol and Ramucirumab

:Consultation with the following

Nasha Winters

Glenn Sabin

Jason Williams

Wiliam Lavalley

MD Anderson

Mark Rosenberg

Energy Medicine

والدي وصراعه
ما بين العطاء والسرطان

يزن شفيق الغبرا -القبس- ١٨/٩/٢٠٢١

رافقت عائلتي في بداية العام ٢٠٢٠ أثناء علاج والدي في مستشفى جامعة جورج تاون بالعاصمة الأميركية واشنطن. كنت أنهي دراسة الماجستير في الجامعة نفسها عندما حضر والداي. لقد درست في مدرسة داخلية بالولايات المتحدة الأميركية منذ عمر الثالثة عشرة، لذا كانت فترة علاجه فترة ذهبية لي لقضاء وقت معه لم يتح لي سابقًا. وجاءت أوضاع كورونا ففرضت نفسها علينا جميعًا كما فرضت علينا التواجد في شقة صغيرة لفترة سبعة عشر شهرًا. في هذه الأوقات كنت أراقبه وأتعلم منه يومًا بيوم.

بعض الأحيان كنت أصحو على صوته العالي يتجاوز حدود الشقة وجدرانها وهو يلقي إحدى محاضراته عبر التلفاز. وأحيانًا أخرى أدخل لأسمعه يقدم النصائح ويشجع البعض عبر التلفون، أو أستمع إليه وهو يحلل الأوضاع السياسية أو يتكلم مع أحد أصدقائه بابتسامته المعهودة التي لا تفارقه.

لطالما راقبته وتمعنت بتصرفاته وتحركاته، فهو دائمًا يخبر الآخرين أنه بخير. بقي يقاتل ويجاهد ضد هذا السرطان حتى عندما نهشه في اللحظات الأخيرة لوفاته. لم يرد والدي أن يقلق الآخرون عليه، فهو كان متحفظًا وحافظًا لخصوصيته وود أن يعاني وحده بصمت، لطالما أراد أن يعطي من نفسه للآخرين أكثر من ذاته.

كنت دائمًا أسأله: «لماذا تبذل كل طاقتك لعملك وأنت في أمسِّ الحاجة إليها لتصارع السرطان؟» كان يعطيني ابتسامته المعهودة. لم يدخل معي في سجال بهذا الشأن، وكان

يكتفي بابتسامته ولم يجبني قط عن هذا السؤال. ما لم يعرفه الآخرون أنه كان يقضي وقته يحاضر أو يعطي مقابلة، ولكنه كان ينام بعدها لعدة ساعات من الإرهاق الذي فرضه السرطان وعلاجه عليه. كان يعرف أن وقته محدود في هذه الحياة، لذا قضاه بالإنجاز والكتابة والبحث وخدمة القضايا التي يؤمن بها.

منذ فبراير ٢٠٢٠ عندما وصل للولايات المتحدة وبدأ رحلة العلاج، أخبره الأطباء بأن وقته محدود. فاستغل وقته بالكتابة فلم ينقطع عن كتابة مقالاته لآخر رمق وللشهر الأخير قبل وفاته. لقد كان يستغل الوقت بعد كل دورة علاج كيماوي وعندما تسمح طاقته بذلك يكتب، يحاضر، ويجري العديد من المقابلات التي كانت تنهكه كثيرًا لينام بعدها لعدة ساعات. لقد عمل بلا كلل أو ملل وللحظة الأخيرة في خدمة القضايا التي آمن بها وما أكثرها. الكويت وفلسطين كانتا محط اهتمامه، العدل والحرية، العروبة والإنسانية جمعاء، كان حلمه الدائم أن يرى فلسطين قد تحررت كما تحرر وطنه الكويت.

لم أستوعب جيدًا مغزى كل ما فعله، ولماذا عمل بلا تعب أثناء التسعة عشر شهرًا الأخيرة من حياته إلا بعد وفاته. إن سماع ومشاهدة كل ما قيل وكتب عنه بعد رحيله جعلني أقدر كل هذا المجهود الذي بذله أثناء فترة علاجه. كان متواضعًا وبعيدًا عن الأنانية. كان يحب تعليم الآخرين وبناء الأجيال. كان يقف مع كل من أحس بأنهم مظلومون. كان والدي شفيق الغبرا يؤمن بأنه يستطيع أن ينصر الحق في العالم، حتى لو منحته الحياة قليلًا من الوقت فاستغل هذا الوقت.

لقد تعلمت من والدي في الشهور السبعة عشر الكثير عنه وعمَّا يؤمن به، وعن كل ما تركه من ميراث نفتخر به وتستفيد منه كل الأجيال القادمة. ومع أنه ليس بيننا بجسده فإن قصصه، بطولاته، ومكتبته الغنية ستستمر حية فينا وفي نفوس من أحبوه. رحمك الله والدي الحبيب.

في وداع زوجي أ. د. شفيق الغبرا

أ. د. تغريد القدسي الغبرا -القبس- ١٨/٩/٢٠٢١

لن أكتب عن شفيق الغبرا الشخصية العامة، الأكاديمي، المحلل السياسي، الباحث أو المعلم لأني تركت ذلك للآخرين ولأن الآخرين ما توقفوا يكتبون ويرسلون ويتعقبون وسيستمرون. سأكتب عن شفيق كرفيق درب وزوج، فهذا الدور الذي أنفرد به وحدي.

كان شفيق خلال الأربع وأربعين عامًا من زواجنا مرشدي في أمور السياسة التي هي جزء لا يتجزأ من اهتمامي، فكنت أسأله عن الكثير من الشائكات بعد قراءة الصحف صباحًا، فأنا أصحو دائمًا باكرًا وقبله وأسأله عن تفاصيل كثيرة لا أُلم بها. السياسة كانت اهتمامه وفلسطين كانت بوصلته. كان فخورًا بكويتيته وما فتئ يتغنى بموقف الكويت الثابت من فلسطين. هو الذي حمل هم الكويت عندما احتلت وأعطاها من نفسه الكثير إلى أن تحررت.

كان يحلم بتحرير فلسطين وان لم يرَ ذلك، إلا أن ثورة الشيخ جراح الأخيرة بعثت به الآمال من جديد. شفيق كفى ووفى دينه لوطنين أحبهما، الكويت وفلسطين. كان مرجعي الدائم المقيم معي في البيت. والآن فقدت هذا المرجع فتراني لا أعطي أبنائي الأجوبة كاملة ولم يعد بإمكاني أن أقول: «نسأل شفيق عندما يصحو» فهذه المرة لن يصحو.

لا أزال أجتر ألم هذا الفقدان «الأبدي» ولا أعلم كم سيطول هذا الوجع وإلى متى، لكني أعلم أن العام والنصف الأخيرين من صراع شفيق مع المرض كانت فترة ألم ووجع وضحك وكلام وتجاذبات. هذان العامان المنصرمان فرضت على كلينا وعلى عائلتنا الصغيرة البقاء في مساحة ضيقة في أمريكا حيث كان يتلقى علاجه. تعلم منه أبنائي الكثير، سألوه عن الكثير واستمعوا ونهلوا منه. وجاءت الجائحة وفرضت نفسها على العالم أجمع كأن العالم

كان يرافقنا في رحلة الوجع هذه. وفي حالنا كانت رحلة المعاناة من السرطان والكورونا معًا.

لطالما كنت ألح على شفيق بالتروي والإبطاء بالعمل والكتابة وخاصة بعد تشخيصه، ولكنه أبى إلا أن يعمل حتى الرمق الأخير. كم كنت أحاول أن أنكر أنه في الطريق للرفيق الأعلى وأنتظر وأتمنى المعجزة. كنت لا أتردد في قراءة أي منهجية علاج موجودة، فأتصل وأكتب وأتناقش وأخبره عنهم وعن منهجيتهم. كنت أقرأ الكتب عن مرضه وكأني طالبة ألخص وأكتب وأسجل. وثق بي وببحثي واستنتاجاتي مما أثقلني بالمسؤولية تجاهه.

لم أفهم رفضه الأكل والشرب ورؤية الآخرين رغم أن أطباءه ظلوا يرددون: «إنه بطل قصته وله الحق أن يخطها كما يريد هو». كنت أتمزق بين حقيقة ما يريد وحقيقة ما هو متعارف عليه ولكن السنون علمتني أن أجد طريقي لإقناعه وإيصاله للموافقة حتى لو بعد حين وهذا ما حصل.

في الشهر الأخير من حياته زهد شفيق في الدنيا وما فيها. لفظ جل اهتماماته، متابعة الأخبار، تلفونه، وكمبيوتره الشخصي. رفض الأكل والشرب ورؤية الآخرين. بدأ يعد نفسه لغير دنيانا. أقفل كمبيوتره وتلفونه وأعطاني محفظته وانتظر حتفه وكأنه كان على موعد!

قبل أن نرجع للكويت وعندما سأل شفيق طبيبه عن النهاية وكم لديه من الوقت أخبره الطبيب: «جسمك سيخبرك» ولطالما أخبرني في الشهرين الأخيرين وللحظة الأخيرة من حياته: «جسمي يخبرني أني في آخر الطريق». كم هو مؤلم هذا الوداع. فمهما استعددت أو أعددت له فهو صعب عند حدوثه. أنت رحلت من دار الفناء إلى دار البقاء رغم أن رحيلك كان مبكرًا وسريعًا.

رحم الله رفيق دربي ورفيق حياتي، والد أبنائي وزوجي شفيق الغبرا.

ملحق الصور والوثائق

أنا وشفيق في الكويت

أنا وشفيق في جنوب لبنان

نحن كعائلة في جنوب لبنان

تخرج ابني يزن من الجامعة ٢٠١٦

في أحد الفنادق بألمانيا أثناء عملية لشفيق في الظهر

بانتظار منظار المعدة في الكويت

يلتهم البراعم التي زرعتها زينة له بالبيت بحماس

مع ابنتينا حنين وزينة في مطار الكويت

ابتدأت حياة التنظيف منذ استقلينا الطائرة

يشرب العصير الأخضر ويري زينة بناء على طلبها

شفيق محاضرًا في منتدى الخليج الدولي

شفيق يتحدث أنه سيحضر تخرج يزن ولو كان على كرسي متحرك

قهوة برازيلية جلبها يزن لأننا من محبي القهوة. يزن في البرازيل فبراير ٢٠٢٠

جلسة العلاج الكيماوي الأولى مارس ٢٠٢٠

شفيق وأنا مع ابننا يزن في مطعم بواشنطن قبل الجائحة

د. أروى الشاعر مع حنين وزينة بالكويت

شفيق والمضخة التي تشبك بالناقل وتبقى معه ليومين

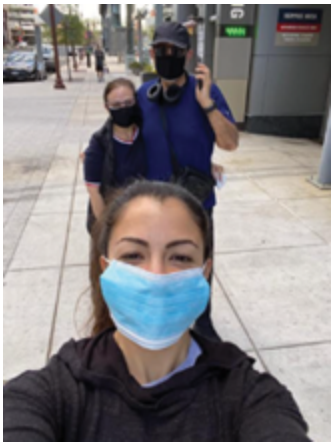

ابنتنا زينة والمشي اليومي وشفيق لا يزال يُعدُّ نفسه لعملية استئصال المعدة

شفيق يستخدم آلة لأوجاع الرقبة التي لطالما عانى منها. ازدادت أثناء العلاج الكيماوي

المشي كرياضة في واشنطن

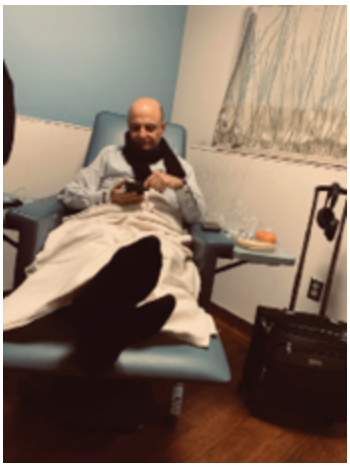

العلاج الكيماوي الثاني مارس ٢٠٢٠

زينة ويزن باحدى المسيرات بواشنطن صيف ٢٠٢٠

يستخدم آلة خاصة للتنفس تساعد رئتيه

فحوصات يناير ٢٠٢١

ديسمبر ٢٠٢٠، عيد الميلاد الأخير لشفيق في الولايات المتحدة. نتدرب على أخذ الصور الذاتية، السلفي، يبدو على وجنتي شفيق الاحمرار، أحد الآثار الجانبية للعلاج. في الخلفية كتبي العديدة عن السرطان الذي كنت أبحث موضوعه وآخر تطوراته العلمية والإنسانية.

قبل التوجه إلى الولايات المتحدة، ديسمبر ٢٠١٩، عيد الميلاد الأخير في الكويت شفيق وأنا ومعنا ابنتنا حنين وأروى وزوجها المهندس سمير أفيوني

بعد إحدى جلسات العلاج الإشعاعي، ديسمبر ٢٠٢٠

الألم والأمل

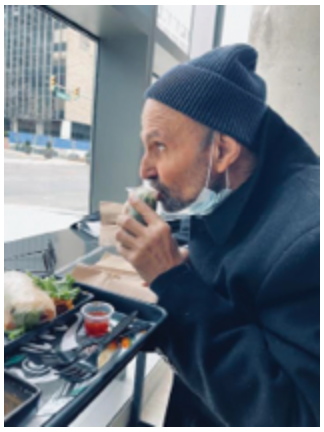

شفيق يأكل لأول مرة خلال ثلاثة أسابيع بعد المستشفى. يناير ٢٠٢١

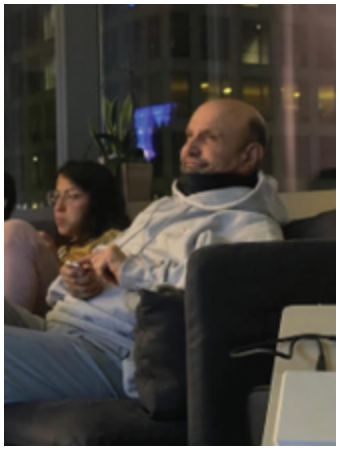

مشاهدة التلفاز ليلًا

الغزال الصغير الذي لم يحالفه الحظ ويحيا بعد أن صدمته سيارة قرب المشفى الذي كان شفيق به

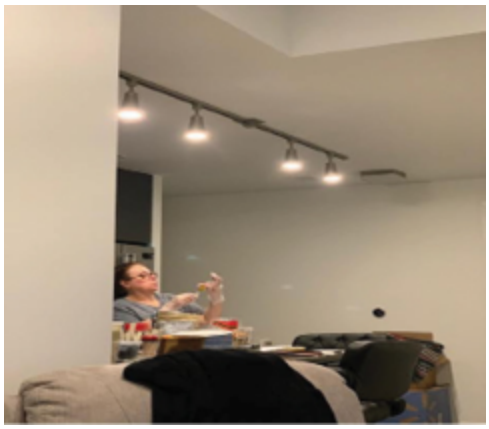

أجهز لشفيق الغذاء الوريدي ليلًا. الصورة من نقال شفيق، أرسلها قبل الوفاة

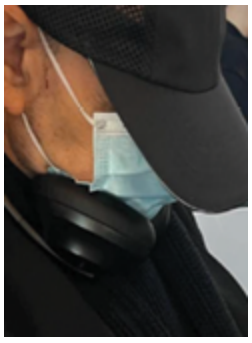

شفيق على الطائرة عائدين للكويت

مع طبيبة الألم د. أمينة الأنصاري أثناء التصوير

الإعلان الترويجي - أبجديات القضية الفلسطينية

دراسات نظرية في العلوم الاجتماعية

متحدثًا لمؤسسة التعاون عن سيرته: «حياة غير آمنة». إبريل ٢٠٢١

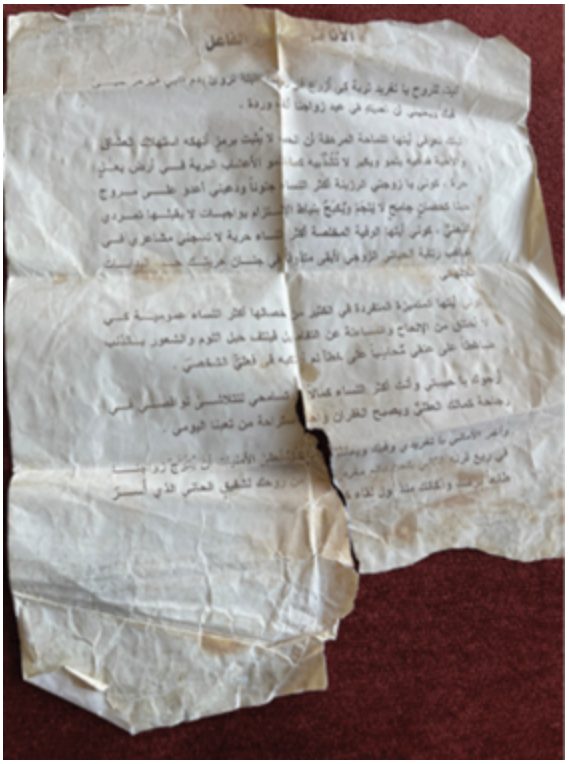

وجدت هذا النثر من كتابة زوجي شفيق في الدرج قرب فراشي. كنت قد وضعته في الدرج عندما أعطاني إياه من سنين عديدة لأسأله بعض الأسئلة عنه ولم تسعفني السنون. يتضح من الكلمات أنه كتبها في عيد زواجنا الخامس والعشرين.

صورة تعكس حب شفيق لفلسطين والكويت وهي إهداء من أصدقاء لشفيق

فنان فلسطيني يرسم اسم شفيق على شاطئ غزة / إهداء من أصدقاء لروح شفيق

إطلاق منحة لدراسة الماجستير في العلوم الاجتماعية باسم شفيق، إهداء من أصدقاء لشفيق

مناصب وإنجازات أ. د شفيق الغبرا

- أبجديات القضية الفلسطينية (سلسلة حلقات مبنية على محاضرات شفيق الغبرا في مقرر «القضية الفلسطينية» على مدى ثلاثين عاما بجامعة الكويت).
- سلسلة حلقات في برنامج «الصندوق الأسود».
- مؤسس (جسور عربية) للاستشارات والتدريب عام ٢٠٠٦.
- الرئيس المؤسس للجامعة الأمريكية ٢٠٠٣-٢٠٠٦.
- مدير مركز الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية في جامعة الكويت ٢٠٠٢-٢٠٠٣.
- مدير المكتب الإعلامي الكويتي في العاصمة الأمريكية واشنطن ١٩٩٨-٢٠٠٢.
- كاتب دائم للصحافة العربية (صحيفة الحياة اليومية والقدس).
- عضو الهيئة الاستشارية في مؤتمر فكر ٩.
- رئيس تحرير مجلة العلوم الاجتماعية في جامعة الكويت.
- حاضر في عشرات الجامعات ومراكز البحوث والجمعيّات العالميّة. له العديد من الكتب والأبحاث، والمقالات والدراسات.

مؤلفاته

- دراسات نظرية حول العلوم الاجتماعية.
- فلسطينيون في الكويت: الأسرة وسياسات البقاء.
- من تداعيات احتلال الكويت.
- الثورات العربية وأعداؤها.
- إسرائيل والعرب: من صراع القضايا إلى سلام المصالح.
- الولايات المتحدة والخليج: قراءة للمتغيرات الدولية ورؤية للمستقبل.
- حياة غير آمنة: جيل الأحلام والإخفاقات: سيرة ذاتية لشفيق الغبرا.
- الكويت: دراسة في آليات الدولة والسلطة والمجتمع.

- النكبة ونشوء الشتات الفلسطيني في الكويت.

يرقد شفيق في مقبرة الصليبخات في الكويت. قمت بنثر حب الرشاد على قبره لأنه لا يحب القحولة، ومع فبراير ٢٠٢٢ بدأ ينبت ويخضر المكان. كنت أنوي أن أزرع شجرة زيتون حيث أنها شجرة مباركة ناهيك عن مغزاها الفلسطيني، ولكن من غير المسموح أن نزرع في المقبرة.

1. الغلاف
2. إلى حياة آمنة!
3. إلى حياة آمنة!
4. إهداء
5. تمهيد
6. مقدمة
7. الباب الأول: الصاعقة
8. الباب الثاني: الولايات المتحدة الأمريكية
9. الباب الثالث: الحياة مع الجائحة
10. الباب الرابع: التخطيط للعودة
11. الباب الخامس: العودة إلى الديار: الكويت أخيرًا
12. الباب الأخير: تأملات
13. أنا والسرطان(1):
14. الأنا ترجو ضمير الفاعل(2)
15. المصادر
16. الروتين اليومي
17. والدي وصراعه
18. في وداع زوجي أ. د. شفيق الغبرا
19. ملحق الصور والوثائق
20. مناصب وإنجازات أ. د شفيق الغبرا